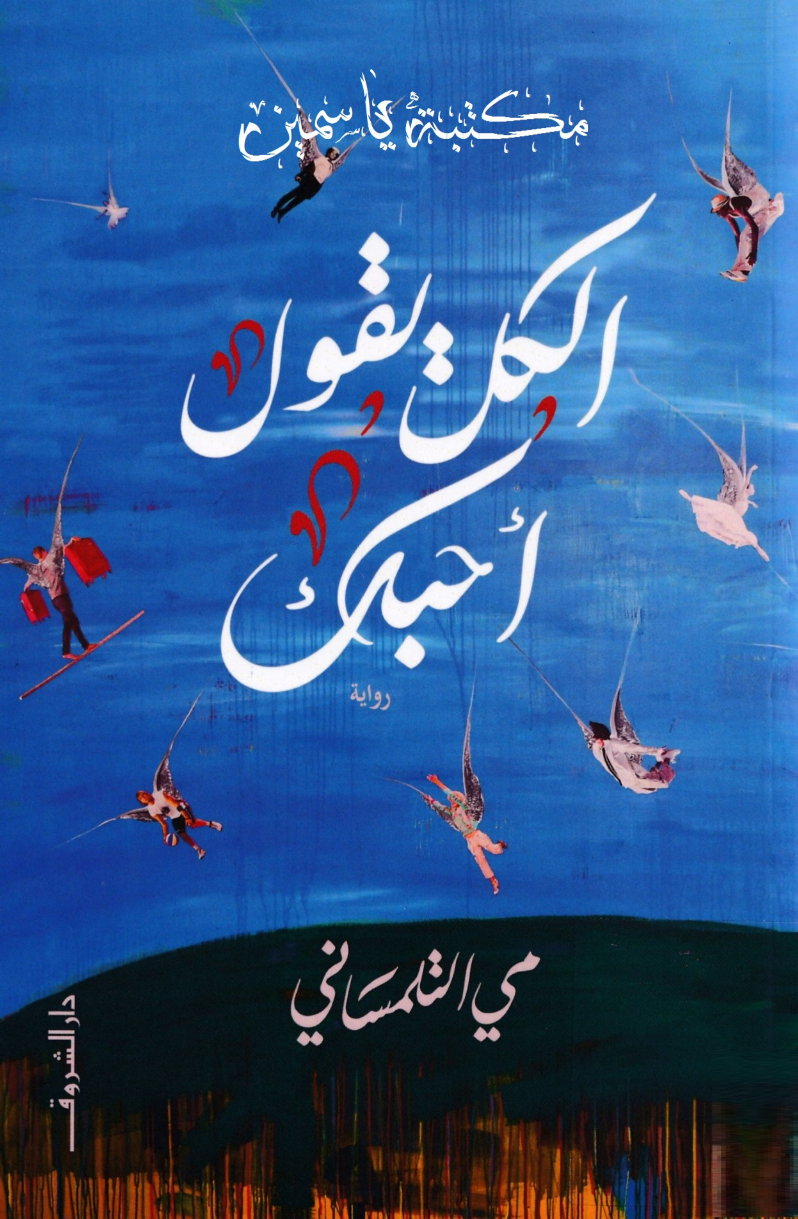

مكتبة ياسمين
الكل يقول أحبك
رواية
مي التلمساني
دار الشروق

الكل يقول أحبك

لم يتوقع كمال المصري أن يلتقي بقرينه في قطار الليل السريع فيشرع في التذكُّر.

ولم ينتظر كريم ثابت عودة زميلة الدراسة بعد غياب لتهدِّد استقراره الأسري.

ولم تخطِّط نورهان عبد الحميد للوقوع في حب سوري من مونتريال يكبرها بعشرين عامًا.

وحدها داينا سليمان نصبت الفخ، واقتنصت رجلًا لا يشبهها للزواج.

أما بسَّام الحايك فما زال يحيا مثل جيلي فيش وحيد في بحيرة راكدة.

في الهجرة، ليس ثمة رجل مراوغ وامرأة طائشة إلا وكان الحب ثالثهما. لكن الطاقة الكبيرة التي تغذِّي أرواح هؤلاء تُفنيها يومًا بعد يوم مشاعر الحب عن بعد؛ حبّ الآخر الغائب، وحبّ الوطن البعيد... في الوقت الذي يهدِّد وباء كوني مصائر الأفراد والجماعات، ويقلب موازين العلاقات البشرية رأسًا على عقب.

مي التلمساني (١٩٦٥-)؛ روائية وناقدة مصرية مقيمة في كندا منذ عام ١٩٩٨؛ حيث تقوم بتدريس تاريخ السينما العالمية في جامعة أوتاوا. نالت جائزة الدولة التشجيعية عن روايتها «دنيا زاد» في عام ٢٠٠٢، وإلى جانب الرواية، فهي تكتب القصص القصيرة والنقد الأدبي والنقد الثقافي خاصة في مجال السينما. لها ثلاث روايات: «دنيا زاد» و«هليوبوليس» و«أكابيلا»، وثلاث مجموعات قصصية: «نحت متكرِّر» و«خيانات ذهنية» و«عين سحرية»، بالإضافة إلى عدة ترجمات ودراسات. وقد تُرجمت أعمالها الأدبية والنقدية إلى عدة لغات.





www.shorouk.com

مي التلمساني



دار الشروق

الكل يقول أحبك

مي التلمساني

الطبعة الأولى ٢٠٢١
تصنيف الكتاب: أدب / رواية
تصميم الغلاف: هاني صالح
لوحة الغلاف إهداء من الفنان خالد حافظ
خطوط العنوان: أحمد يوسف خواجة

رقم الإيداع ٢٠٢١/١٦٩٨٠
ISBN 978-977-09-3711-2

دار الشروق
٧ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
/dar.elshorouk /Darelshorouk

التلمساني، مي
الكل يقول أحبك. مي التلمساني
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٢١
١٩٢ ص، ٢٠سم
تدمك ٩٧٨٩٧٧٠٩٣٧١١٢
رقم الايداع ٢٠٢١/١٦٩٨٠
١- القصص العربية أ. العنوان ٨١٣

إلى

شهاب وزياد


كمال المصري

ما إن جلستُ على مقعد القطار المكسو بالجلد حتى شعرتُ براحة في ظهري وفي أطرافي. غُصتُ بجسدي في المقعد كمن انزاحتْ عن كاهله كتلة من الأثقال، أو كمن سقط في حفرة. أعباء العمل اليومي، الوقوف لساعات طويلة في الصف، الركض بين قاعات التدريس ومكاتب الموظفين، كل شيء أصبح ثقيلًا على روحي.

تقول ناهد إن الثقل الأكبر يأتي من ارتخاء عضلات البطن التي تضعف بدورها عضلات الظهر. تقول: عليك بممارسة الرياضة والامتناع عن النشويات والحلوى. أنصت إليها بنصف أذن. أحبها ولا أحب مخالفتها كثيرًا. وهي عنيدة ولا تجيد الإنصات. ما لي وقد جاوزت الستين أحرم نفسي من متع الحياة، أو ما تبقى منها. الطعام. الراحة. متابعة الأخبار عن بعد. الاستسلام للزمن، للعادة، للظروف.

أجيد الإنصات لناهد، وأبتسم في ود. لكني لم أعد أصغي.

تبدأ عطلتي الأسبوعية مساء الأربعاء، أقضي جزءًا منها في القطار ذهابًا وعودة من مدينة وندسور وإليها، والجزء الثاني في حضن ناهد. وربما لم تعد بيننا أحضان حقًا، لكني لم أزل أحتاج لمعانقتها. أحب ملامستها لو تركتني أفعل، وهي عادة ما تتركني. تستسلم لتلاقي جسدينا في حدود اللمس الهين والقبلات السريعة على الخد أو الكتف. بعد صباح الخير، وقبل النوم.

لناهد بعد الستين حضور مطمئِن، لي أولًا حيث لم أعد أبذل جهدًا لإرضائها، ولها ثانيًا حيث لم تعد تبذل جهدًا لاستقبالي. حضورها هذا هو ما ينقصني، رائحتها، حركتها في أرجاء البيت، نظرتها، ابتسامتها، عبوسها، نشاطها المفاجئ، تراخيها أمام التلفزيون. ملمسها في الذاكرة وصورها التي أحتفظ بها على التلفون يؤنسان وحدتي في الغربة. وهي ليست غربة على وجه اليقين؛ إذ إن بيننا ساعات قليلة بالقطار أو بالسيارة. قريبًا أحل في بيت تورونتو حلول الصيف الكندي. هادئًا، مبتهجًا وبردانًا. أتوق لدفء البيت الذي تسكنه ناهد. بيتي، فيما أظن.

الركاب يروحون ويجيئون في الممر الفاصل بين المقاعد؛ مقعديّن إلى اليمين وآخريْن إلى اليسار. حركة مدوخة. أغمض عينيَّ وأستسلم للمقعد الوثير. تلح على ذهني كلمة غربة. أيّ غربة هذه ونحن مقيمان في بلد واحد، في كندا بلد الغرباء والمهاجرين من الأعراق والأجناس كافة؟ أسمع ناهد تقول مستنكرة: بل كل واحد في مدينة. وتقول: هل هذه حياة؟ خمسة وعشرون عامًا قضيتها في مدينة تقع على بعد أربع ساعات بالقطار من مدينة ناهد. أنا في وندسور الصغيرة الواقعة على الحدود بين مقاطعة أونتاريو الكندية وولاية ميتشجن الأمريكية، وهي في تورونتو عاصمة أونتاريو.

خمسة وعشرون عامًا، يا إلهي! ترى كم من العمر انقضى في محطات القطار، وكم من العمر تبقى لنا؟

أبالغ. انقضى العمر في العمل والركض والشجار، في محاولة رأب المسافة الفاصلة بين مشروعينا. انقضى في أحضان نساء أخريات، وفي رحلات سنوية داخل وخارج كندا، من وإلى مصر.

بحساب المكسب والخسارة، أرى نفسي في وضع أفضل الآن عمّا كنت عليه قبل سنوات، وأشعر بامتنان لناهد.

مغمضًا عينيَّ، أسرح بخيالي في حسبة الزمن. يراني من يراني كأني ميتٌ أو نائم، لكن عقلي نشط.

مرت خمسة أعوام على بلوغنا الستين أنا وناهد. حلّ الصمت محل المناهدة، وهدأت أسباب الشجار. بدا لنا أننا نجحنا في إبقاء زواجنا على ما هو عليه، وكان هذا في ذاته إنجازًا يحسدنا عليه المعارف والأصدقاء. ظلت هي في وظيفتها مديرة بوزارة الصحة، مشغولة بأسفارها المتكررة بين أقاليم كندا. أما أنا، فأنهي عملي مساء الأربعاء، وأركض لأستقلَّ القطار.

أصل تورونتو بعد منتصف الليل بقليل، وأستقلّ سيارة تاكسي للبيت. تكون ناهد (أو لا تكون) في انتظاري. وصولي عند باب البيت ولحظة الدخول من أحب اللحظات إلى قلبي. كأن إنجازًا كبيرًا قد تمَّ، كأن الراحة والهناء ينتظرانني في آخر الممر. يكون مدخل البيت مضاءً لأجلي، يكون البيت في انتظاري. مهم أن ينتظرك أحد أو شيء عند عودتك من العمل. تأتيني أحيانًا رائحة الفرن فيسيل لعابي في انتظار المفاجأة. ترى ماذا أعدت ناهد هذه المرة؟ لحمًا وبامية من السوبر ماركت اللبناني «أرز فودز»؟ سلاطة ومخبوزات من أفران صلاح الدين؟ خرشوفا باللحم المفروم والجبن من مطبخ الكنيسة المجاورة؟ لو كانت ناهد في انتظاري، أقبلها على خدها وأتبعها للداخل وأراها وهي تجهز بعناية وجبة صغيرة أنيقة تضعها على السفرة، وتجلس أمامي لنتبادل أطراف الحديث. أما لو كانت نائمة، فأخرج الطعام من الفرن وألتهمه في المطبخ قبل أن أخلع

ملابسي وأنسلّ إلى جوارها في الفراش. لا تشعر بي كالعادة. تغط في نوم عميق كمن يحلم أحلامًا سعيدة. هذا هو الحضن. أن يلتصق ظهري بظهرها كل أسبوع مرتين أو ثلاث مرات.

في كل مرة ألتصق بها يراودني السؤال نفسه: كم من الوقت مضى على قرارنا بالاكتفاء؟ سنوات فيما أظن. تزيد أو تنقص عن عشر. في الآونة الأخيرة، حلت الطبطبة محل المعاشرة، ولم يعد لدي أي منا ميل لمناوشة الآخر. تحول الزواج إلى شراكة في البيت، وما يشبه الصداقة في الفراش. نستعين بالعشرة والمودة على الغياب والغربة. لو أصابها حزن أو أصابتني لوثة انجذاب مفاجئة أحتضنها، وتشعر بأنفاسي ساخنة فتربت على كتفي. نبتسم ونتراجع عن مشروع العناق، كأننا على شفا هاوية.

معًا منذ ما يربو على أربعين عامًا. منذ أن كانت هي ابنة الجيران في عمارة حدائق القبة، وكنت أنا ابن صاحب البيت في العمارة نفسها. يكفيها أن تنظر إلى وجهي أحيانًا، وتربت على ظهري أحيانًا وتتذكر أيامًا هانئة فتبتسم. يكفيها أننا صامدان في وجه الزمن وأوجاع الهجرة. لكن من يعوضني أنا عن وجع الروح وفتور الرغبة في جسدينا؟ وكيف لقلبي أن يكتفي بفتات المشاعر ونثار الذكريات؟

ساعة الموبايل تشير إلى مرور عشر دقائق على مغادرة القطار للمحطة. عشر دقائق فقط؟ يبدو أن انطلاق القطار صوب الشرق سيكون مدوخًا فوق العادة. انتبهت لكوني جالسًا عكس اتجاه السير، وكأني أتقدم للوراء. يا للحظ! كيف غاب عن بالي أن أتأكد من رقم المقعد واتجاهه في أثناء حجز التذكرة؟ اخترت المقعد المجاور للنافذة، ونسيت التأكد من الاتجاه. ما إن أدركت ذلك

حتى شعرت بدوار. مسألة نفسية لا شك، أقول مطمئنًا نفسي. لكني متأهب كعادتي وحاسب حسابي. أخرِج من حقيبتي الجلدية الصغيرة علبة الدواء المضاد للغثيان بطعم الزنجبيل، وأضع حبة تحت لساني. حبة تشبه قرص النعناع، كفيلة بتهدئة المعدة وتخدير الأعصاب ولو إلى حين.

المقعد المجاور للنافذة أمامي شاغر. سأنتظر وصول القطار للمحطة التالية. لو لم يصعد أحد ليحتل المقعد فسأبدل مكاني. أما المقعد المقابل والمجاور للممر فقد احتله رجل أنيق تخطى الأربعين بقليل. دخل الحمام منذ قيام القطار ولم يعد. ترك حقيبته على الرف أعلى المقعد واختفى. ربما خرج من الحمام ولم ألحظ خروجه. سيعود بلا شك، وسأعتذر بأدب عن مزاحمتي له وأنا أبدل مكاني لأجلس بجواره.

***

غفوتُ لحظات. ربما دقائق. وحين أفقت كان ينظر إليَّ ويبتسم في ود. لم أشعر بمجيئه. كان يضع الكمبيوتر على ساقيه، ويضع فوقه كتابًا تعرفت على غلافه على الفور. كتاب الباحث الإيراني «حميد دباشي» عن الربيع العربي. عدلت من جلستي المسترخية وضممتُ ساقيَّ الممدودتين في الفراغ الفاصل بين المقعدين معتذرًا بالإنجليزية. فبادرني بلهجة مصرية سليمة: خليك على راحتك! ثم أردف سريعًا: بروفيسور كمال المصري مش كده؟ أجبته بابتسامة تعجب: أيوه! مد يده وقال: أنا من جامعة وندسور. اسمي كريم ثابت.

مددت يدي وصافحته على مضض. كنت أفضل أن أغفو على هدهدة القطار حتى نصل المحطة التالية ثم أبدل مقعدي. أمني نفسي بالنوم حتى نبلغ محطة يونيون ستيشن في تورونتو. لم تكن لديَّ رغبة في التعرف على زملاء جدد. ناهيك عن زميل من مصر. ولم افترضت أنه مصري؟ بسبب لهجته؟ عرب كثيرون يقلدون اللهجة المصرية. هممت أن أسأله فوجدته يقول: أنا من القاهرة. وحضرتك من حدائق القبة. وقبل أن أجيبه بادرني: اتولدت في حي الظاهر. ثم أضاف بالإنجليزية: نحن جاران في المنشأ وفي العمل. ثم ابتسم فابتسمت ووجدتني أسأله بالعربية: من أي قسم؟ أجاب: الإعلام. سألت: بقالك كتير؟ أجاب: عدة سنوات، وحضرتك؟ أجبته: أنا في وندسور من ١٩٩٥. قبلها اشتغلت في جامعة تورونتو وقبلها في مونتريال. أجاب بالإنجليزية: نعم، أعرف. أدب مقارن. قرأت رسالتك للدكتوراه عن الاستشراق في الأدب والسينما.

يعرف الكثير عني. كما أنه قرأ كتابي الأكاديمي الوحيد المنشور بالإنجليزية. أمعنت النظر في وجهه الباسم، ولاحظت أن شعر رأسه تراجع للوراء وكشف عن جلد خمري أملس على جانبي الرأس. ذكرني بنفسي في سن الأربعين. في تلك الفترة، أصابني ذعر بسبب تساقط الشعر. تزامن هذا مع ترقيتي لمنصب أستاذ مساعد بجامعة وندسور، وقراري بعد سنوات من التردد والتفكير أن تظل الأسرة في تورونتو، على بعد أربع ساعات بالقطار من وندسور، وأن أداوم على السفر بين المدينتين. تعودت أن أعود إلى البيت في نهاية كل أسبوع، وعلى قضاء عطلات الكريسماس وعيد الشكر والعطلة الصيفية مع ناهد والولدين في تورونتو. سألني:

- هل بلغتكَ أنباء عن تحويل بعض الكورسات للتدريس أونلاين؟

- لا، لست متابعًا جيدًا لتصريحات الإدارة العليا.

- أنباء الوباء في الصين غير مبشرة، وفي بعض الأماكن في أوروبا أيضًا. أصبحنا قاب قوسين أو أدنى من كارثة كبرى. أصدقاؤنا في الغربة هم عزاؤنا الوحيد.

ما يقوله هذا الغريب حق. في الغربة، نصنع لأنفسنا عائلات موازية من الأصدقاء والمقربين والأحباب، وتتراجع العائلة الكبيرة في خلفية المشهد. حدث لي هذا حين تركت بيت حدائق القبة وجئت إلى مونتريال، ثم حين هاجرت من داخل الهجرة من مونتريال إلى تورونتو، ثم منها إلى وندسور. في كل مرة تتغير علاقتي بفكرة وقيمة الأسرة، وتثقل على نفسي الزيارات الاجتماعية الثنائية. تلك التي يبرع في اختلاقها المتزوجون وهم يتبارون في إبراز مدى تعلقهم بزوجاتهم وأبنائهم ومدى تماسك أسرهم السعيدة. في غمرة اللهاث والمنافسة على إثبات وتجديد الثقة، تتلف الأسرة وتذوي ولا أحد يدري من أين يأتي العطب. تجده ماثلًا في نظرات العيون وفلتات اللسان ومحاولات الهرب من الشراكة الأبدية إلى الأحضان المؤقتة. ينكشف بعضها ويشعل الحرائق، ويظل بعضها الآخر مجهولًا لجماعة المتزوجين فيبدو الكل سعيدًا بما أنجز في العلن، أو بما نجح في إخفائه في السر.

بعد الترقي واستقرار الحياة بين مدينتين، اتخذتُ لنفسي صديقة في وندسور، وتباعدت رحلاتي الأسبوعية لتورونتو طورًا من الزمن. لم أفعل ذلك عامدًا لكنها تصاريف الحياة. بدا لي

وكأن كل الأشياء تتجاور: مشاعر الحب تجاه ناهد، الانتماء لشلة المتزوجين، الروابط بيني وبين الولدين، رخاء العيش في تورونتو بمرتب أستاذ جامعي كبير، وكذلك مصادقة النساء خارج الزواج. كانت آيلين من أصل أيرلندي، تعمل مدرسة لنصف الوقت بقسم الفنون البصرية. فنانة جرافيك جذابة، ذكية، شقية. التقينا كصديقيْن في البداية، ولما شجعتني على الاقتراب اقتربت. شعرت في أول لقاء جنسي معها براحة واطمئنان كنت أفتقدهما في علاقتي بناهد. كانت حرة منطلقة، وكانت أنانية في الحب. أردت أن أكون مثلها، أن أقتنص حقي من الجنس بلا مشاعر إثم، بلا اعتذار عمّا فعلت أو لم أفعل. يعجبها شعري المجعد، تداعبه في كل مرة بافتتان، تطلب مني إطالته، وتغضب لو شذبت لحيتي. تريدني خشنًا، نهمًا. وأريدها مستقلة عني، مقبلة عليَّ.

أول من لاحظ تراجع خط الشعر أعلى جبيني وظهور الشعيرات البيضاء في مقدمة الرأس والفودين هي آيلين، لا ناهد. ضحكت وسخرت من جزعي. بعد حين، فترت العلاقة بيننا بلا أسباب واضحة. ربما راح الاندهاش، وربما نضبت الرغبة. تجاسرت وأخبرتها بميلي للابتعاد. ادعيتُ مشاعر ذنب معدومة تجاه ناهد. لم تصدقني، ولم تكترث. ثم كفتْ عن السؤال. ومرت بمكتبي ذات يوم دون أن تلتفت.

انتقلت آيلين للعيش والعمل في مدينة فانكوفر في أقصى الغرب الكندي وانقطعت أخبارها. بل لم تنقطع تمامًا. عرفت أشياء عنها عن طريق الفيسبوك. ثم كاتبتها مرة فردت بصور عارية لها بصحبة كلب، وعلقت عليها بكلمة تتبعها نقطة: البديل. لم نلتقِ سوى مرة

أخيرة بعد سفرها. كنا في مؤتمر علمي في واشنطن حين التقت أعيننا في بهو الفندق وأنكر كل خلٍّ خلَّه.

الآن وقد انتصف عقدي السابع، سقط الشعر الذي أحبته آيلين وسقطت ذكراها. إلا ما تبقى من ملامحها ولفتاتها أثرًا باهتًا للرغبة. كانت أول وآخر صديقة عرفتها لأقيم معها علاقة جنسية بحتة، لا تربطني بها مشاعر حب، صديقة مع فوائد كما يقال هنا. ولو أمعنت التفكير لقلت إن للنساء بصفة عامة حضورًا مؤقتًا في حياتي. أفضل صحبة الرجال الممتدة في الزمن على صداقات النساء العابرة. وحدها لينا عقاد ظلت حاضرة. أما الأخريات فلهن نصيب هزيل من الذكرى، ونصيب أكبر من النسيان.

–هل تسافر دائمًا في قطار الثامنة إلا الربع؟

انتبهتُ لسؤال كريم المفاجئ، وأجبتُ بنصف اهتمام: نعم، نعم.

– أنا أيضًا. زوجتي تقيم في تورونتو. ما إن أنهي التدريس حتى أركض لمحطة القطار.

– بيتك في تورونتو؟

– نعم. وظيفة زوجتي ثابتة. تعمل في حكومة أونتاريو. والأولاد يفضلون تورونتو على وندسور.

– في أي مؤسسة تعمل زوجتك؟

– وزارة الصحة. والولدان في مدرسة ابتدائية متميزة. أكره أن أخرجهما منها. تعرف؟

أعرف ما يقول كريم جيدًا. بعد انتقالنا من مونتريال عاصمة مقاطعة كيبك الفرنكوفونية إلى تورونتو عاصمة أونتاريو، التحق الولدان

بمدرسة «جابرييل روا» الفرنسية. وبرغم تنقلنا بين بيوت وأحياء تورونتو كشأن معظم الكنديين، لم أسع لإخراجهما من المدرسة بعد أن كوّنا فيها صداقات حافظا عليها حتى انتهاء المرحلة الثانوية. بعد حصولي على منصبي الحالي، قررنا أنا وناهد أن البقاء في تورونتو هو الحل الأفضل لها وللأولاد وكذلك لاستقرار الأسرة. كانت ناهد قد جاوزت الأربعين، وكنت ما زلت أشتهيها بجنون. أعود كل أسبوع متشوقًا لعناقها، لتعاريج جسدها، تأودها بين ذراعيَّ، صرختها. كان لعذابي في النأي عنها اسم وثقل. البعد عنها والعودة وحيدًا لشقتي في وندسور كانا الشقاء بعينه. حجرة وحيدة وصالة يضيئها النيون ومطبخ صغير وحمام بلا نافذة وغياب ناهد.

أحيانًا كانت تزورني بصحبة الولدين. تدخل البهجة من باب الشقة ولا تغادرها لأسابيع. تترك بصمتها على المكان وبقايا عطرها على الوسائد وترحل بهدوء كما السحاب. بعد زمن، صارت تتململ من ضيق الشقة، وتتحايل كي أسافر إليها بدلًا من أن تأتي هي إليَّ. وبدأت أسفارها بطول كندا وعرضها تلتهم وقتها وتشبع توقها للتميز ولفت الأنظار. تقول إن عملها يعوضها عن الحب والغياب. من جهتي، خفتت مشاعر الوحدة بمرور الوقت وبانتظام دورة الحياة في شكلها الجديد. وظهرت نساء أخريات في الأفق؛ صداقات عمل، معاكسات عابرة، تأتي وتروح بلا ضجيج. أعود لناهد مصحوبًا بمشاعر الذنب أحيانًا، وتستقبلني بلهفة مفتعلة أحيانًا أخرى. كبر الولدان وانشغل كلانا بالعمل وأسباب النجاح.

أتذكر ملامح ناهد في تلك الفترة بفضل الصور، ولولاها لغابت تفاصيل وجهها في متاهة الذاكرة. جمالها هادئ وصارم، بشفتين

رقيقتين وعينين واسعتين كعيون نفرتيتي وأنف حاد وشعر مموج تعقصه على هيئة كعكة إسبانية عند التقاء خط الشعر بالعنق.

أتذكر أنها حافظت على جسدها من الترهل بفضل التمارين الرياضية حتى ما بعد الخمسين. في تلك الفترة ظهرت عليها أعراض ما يسمى الولع باقتناء الأشياء. أخذت تسرف في جمع الكراكيب وتبرر الاقتناء بعشرات الدوافع والمسببات العاطفية، المنطقية وغير المنطقية. وكأن البيت أصبح امتدادًا لجسدها، يترهل بدلًا منه ويراكم الزوائد والدهون مثلما يراكم الأتربة والذكريات. كانت تحتفظ بكل شيء تطوله يداها، قطع أثاث لجيران غادروا المبنى، هدايا موسمية من زملاء العمل، ملابس مضت عليها حقبتان أو ثلاث، صناديق ضاقت بها بيوت الولدين فأودعاها ركنًا من أركان البيت أو البدروم، زجاجات عطر فارغة تذكرها برحلة قمنا بها، أنواع لا حصر لها من الحلي والإكسسوارات النسائية الموروثة أو تلك التي اشترتها حديثًا ونسيتها في أحد الأدراج. صار البيت في تورونتو متحفًا صغيرًا لمقتنيات ناهد، وصرنا نتحرك بين الأثاث بحذر خوفًا من أن نكسر فازة تحبها ناهد، أو نطأ وسادة وضعتها على الأرض لخلق جو شرقي تقول إنها تفتقده في الغربة. أحببت بيت ناهد في صورته الجديدة وتأقلمت مع ولعها بجمع الأشياء تمامًا، مثلما تأقلمت هي مع غيابي عنها وغيابها عن شقة وندسور الضيقة.

برغم مرور السنين مازلت منجذبًا لناهد. أشتهي جسدها لكني لا ألح في الطلب. المؤسف حقًّا بالنسبة إليَّ هو أن روحها، بمضي الوقت، تسللت من بين أصابعي وغابت. ربما يكون هذا الغياب هو أقسى ما حدث لنا على مدى أكثر من أربعين عامًا من الحياة

المشتركة. مَن السبب؟ كلانا غالبًا. ميلي للمبالغة في التعبير عن العواطف يقابله حزم ناهد في التعامل معها. أدركت بمضي الزمن أنها أغلقت بابًا بيننا ولم تفتحه قط. هل يا ترى عرفت تفاصيل انجذابي لأخريات؛ آيلين ولينا مثلًا؟ لا أعرف على وجه الدقة. كل ما أعرفه أنها في لحظة ما اتخذت قرارًا ولم تتراجع عنه. ولماذا في أوج لحظات الشجار والخلاف بيننا لم تطلب الانفصال عني؟ لماذا لم تطرح يومًا فكرة الطلاق؟ لماذا ظلت تحافظ على البيت وتصون العشرة؟ هل اختارت أن تظل زوجةً وأمًّا وهي ترتقي سلم الوظيفة بدأب؟ قالت في معرض الحديث ذات مرة إنها تحررت من الحب بالزواج المبنيِّ على الصداقة. ثم تاهت مني، تارة في حضن الولدين وتارة أخرى في حضن الوزارة. يعنُّ لي أن أسأل كريم:

- هل قلتَ إن زوجتك تعمل بوزارة الصحة؟

- نعم، نورهان موظفة في وكالة التسويق والتوظيف التابعة للوزارة. أعتقد أن السيدة ناهد مرت بالوكالة أيضًا في بداية عملها؟

- هل تعرف ناهد؟ أمر غريب!

- لم نلتقِ. لكن نورهان تعرفها. نحن المصريين في المهجر نعرف الكثير عن بعضنا البعض، لكننا نتجنب اللقاء المباشر (يضحك).

المهجر؟ هل ما زال الناس يستخدمون هذه الكلمة؟ أي مهجر في عصر الوسائط والعولمة؟ ألم يقل إنه قرأ كتابي؟ ألم يقرأ الفصل الخاص بمفهوم الثقافات العابرة للقوميات؟ هممت بسؤاله متهكمًا لكني احتفظت بالأسئلة لنفسي ولزمت الصمت. فكرت أن اختفاء الطبقة المتوسطة التي نمت في مصر في ستينيات القرن العشرين

لم يكن تامًّا ونهائيًا. فقد عاودت الظهور في البلاد التي هاجر إليها أبناء هذه الطبقة في الثمانينيات والتسعينيات، وهذا الكريم ثابت أحد تجلياتها العملية. عندما وجدني لا أجاريه في التهكم، أبدى تأدبًا من نوع آخر. تأدب العارفين ببواطن الأمور، المتعاطفين من الداخل.

- أعتقد أن السيدة ناهد في طريقها للتقاعد. هل ستنتقل للإقامة معك في وندسور؟

- لا.

أشعر بالاستياء من تطفل هذا الغريب المتغطرس. إذ كيف له أن يعرف ما تريده ناهد وما تنويه؟!

ارتبك كريم وأجابني متلعثمًا:

- أعتذر. ربما تطفلت عليك. هل أتركك لترتاح؟ أتفضل تبديل مقعدك؟

- لا، أبدًا.

جاء ردي جافًّا، قاطعًا. لا أستطيع إخفاء غيظي. حولت بصري باتجاه عتمة الليل ورأيت شبحينا منعكسين على زجاج القطار. رجل أصلع تهدلت عضلات وجهه وبطنه، والآخر أصغر سنًّا لكنه في الطريق لمواجهة المصير نفسه. رأيته يفتح الكتاب ويتصفحه ويدعي القراءة. يبدو متحذلقًا بشدة. أكره هذا النوع من أساتذة الجامعة؛ النوع الذي يقترن حضوره في المجال العام بكتاب أو كمبيوتر.

بعد برهة، تاه عقلي في خيالات التقاعد وكأنما جرني إليها هذا الرجل الغريب جرًّا. بعد أسابيع، ستبلغ ناهد الخامسة والستين،

وسيكون هذا إيذانًا ببداية جديدة لعلاقتنا. أخاف مما قد يحدث بعد التقاعد. المزيد من المقتنيات، أم تراها ستسعى للعيش معي في وندسور؟

***

غفوتُ وصحوت. حركتُ عنقي يمنةً ويسارًا وحاولتُ إرخاء الكتفين. نظر إلى كريم واستكمل حديثه كأن الزمن لم يمر. ولكن هل مر زمن؟ تسعفني الذاكرة بلقطات من فيلم الخيال العلمي «Inception»؛ فأبتسم للخاطر وأترك لعينيَّ حرية التحرك بين وجه جاري وعنقه حيث ألاحظ ندبة صغيرة أسفل الذقن. بدا كمن وقع على آلة حادة تركت أثرًا لا يمحى في تلك البقعة بين اللحم وعظام الفك. يستطيع أي قاتل لو أراد، أن يغرس خنجرًا في نفس الموضع وينهي حياة هذا الكائن المتطفل في التو. أتابع الحديث بنصف أذن، وأرد بتأدب، وأتحول بمرور الوقت لمشروع قاتل أجير. يثير حنقي هذا الثرثار وقد استرسل في حديث لا ناقة لي فيه ولا جمل عن حياته الخاصة:

- تقول نورهان إنها تفضل البقاء في تورونتو؛ حتى تظل قريبة من المطار. رحلة مصر للطيران مقدسة لديها (يضحك ثانية فتضيق عيناه).

- هل تسافر زوجتك كثيرًا؟

- تسافر في عطلة الصيف. تترك الولدين لي وترحل لمدة شهر. تزور الأهل والأصدقاء في الإسكندرية، تتسوق، تسهر. تسافر أحيانًا للعمل أيضًا. معظم الأوقات داخل كندا.

- وأنت؟ ألا تسافر إلى مصر؟

- لا يا سيدي! يكفيني ركوب القطار ذهابًا وعودة كل أسبوع. ثم إني لا أشعر باشتياق كبير لمصر. تعجبني الحياة في كندا، خاصة في الصيف. كل شيء هنا هيّن.

أفكر أن كل شيء هين في كندا إلا النساء. ولكن لم هذا الخاطر؟ ألم تمضِ حياتي هينة بصحبتهن؟ ولماذا أفكر بصيغة الجمع؟ لو قرأ هذا الرجل أفكاري لتصور أني كازانوفا. وربما تكون له تجارب مماثلة، فحذلقته هذه تعجب بعض السيدات، وربما توقعهن في حبائله بسهولة.

في الحقيقة لم أقم علاقة ممتدة خارج الزواج إلا مع امرأتين فقط. آيلين الأيرلندية التي دامت صلتي بها عامين وعلى فترات متقطعة، ولينا عقاد السورية التي استمر حبي لها أربعة أعوام. كان حبًّا طاغيًا لا يشبه حبي لناهد. تلبستني حالة انجذاب لم أعهدها في نفسي من قبل، لا أدري كيف ولا متى. أغواني الحب بحياة مختلفة بعد انتصاف الخمسين. في غفلة مني راح يتغلغل ويستقر. ينمو ويتفرع. ثم انكسر مثلما تتكسر أغصان السنديان في مواجهة ريح عاتية. حدث هذا بلا دراما، بلا أسى. أتذكر ما قالته لينا في خطابها الأخير: «كأننا اتفقنا أن حبًّا كهذا لا يموت، حتى لو ضيعناه. يتخذ أشكالًا ليس من بينها اللقاء، لكنه لا يموت. فلماذا البكاء إذن، وعلى أي شيء؟».

كانت محقة. أصابنا حزن كبير قرب نهاية العلاقة، وخيم ظله على لقاءاتنا الأخيرة. ثم زال الحزن رويدًا رويدًا، وحل محله ثقل في المعدة وشعور مزمن بالغثيان.

اليوم بعد أن هدأت العاطفة واستقرت المشاعر، أتذكر أشياء وأنسى أشياء. مرت ست سنوات. صحيح أن الذكريات تتشابه وتختلط الوجوه والأحداث، لكني لا أنسى. يقطع كريم حبل أفكاري مستفسرًا:

- هل تعود لوندسور في قطار الأحد مثلي؟

- نعم. أليس غريبًا أن نذهب ونعود في القطار دون أن نلتقي؟

- بل التقينا. لكنك تنسى.

- حقًّا؟! معذرة. أصبحت أنسى كثيرًا هذه الأيام. متى التقينا؟

- أول مرة في حفل استقبال الأساتذة الجدد بكلية الآداب منذ نحو عامين.

- منذ عامين؟ آه. تذكرت. طلب مني العميد التحدث باسم الكلية بسبب اضطراره للسفر. كان قد تقدم سرًّا لوظيفة رئيس جامعة صغيرة، وكان على موعد مع لجنة التعيين (نضحك معًا).

- كانت كلمتك مؤثرة. إيمانك بأهمية العلوم الإنسانية والدراسات الثقافية والأدب المقارن. الانفتاح على الثقافات. دور المثقف العضوي أمام هجمة الليبرالية الجديدة. عقل شاب، وثَّاب.

- أشكرك. إطراء لا أستحقه. لديَّ ذكرى غائمة عمّا قلته ذلك اليوم. لكني بالتأكيد أشرت لـ«إدوارد سعيد» و«فرانتس فانون». أفتعل أحيانًا أي حديث للتذكير بأصولي كمهاجر.

- ذكرتَ أيضًا «ستيوارت هول»، و«حميد دباشي». هذا الكتاب تحديدًا (يبتسم فتضيق عيناه).

- أوه نعم، مقالاته عن الربيع العربي. التحدي المؤجل. كتاب رائع (بدوري أتخذ سمت العلماء)، قرأته في خضم الثورتين المصرية والسورية، وبدا لي أنه يجمع بين الحراكين الشعبيين بشكل غير مباشر.

وقد يجمع الله الشتيتيْن بعدما... يظنان كل الظن أن لا تلاقيا. ألتفتْ باتجاه النافذة، وأتذكر تلك العبارة التي كتبتها لينا ودستها بين ملابسي. كنت مسافرًا لتورونتو في نهاية فصل الربيع، وكان هذا أول فراق طويل بيننا.

اهتز القطار ساحقًّا القضبان بعنف مدوٍّ. المقعد أمامي ما زال شاغرًا. بإمكاني استكمال الرحلة في اتجاه سير القطار. لكنني عازف عن الحركة برغم شعوري بدوار خفيف. أفضل الجلوس في مواجهة كريم لا بجانبه. أريده أن يراني وأن أراه كعادتي في التحسب من الغرباء. فضلًا عن كونه ثرثارًا لا يؤمن له جانب؛ فقد أدخلني في تفاصيل لا شأن لي بها عن حياته الخاصة.

- اشترينا بيتا في تورونتو قبل حصولي على الوظيفة في وندسور. كانت نورهان تلح، تؤكد أن مرتبها يكفي. تقدم الدلائل، دراسات لسوق العقارات، حسابات بنكية، مقارنات بجيران وأصحاب اقتنوا بيتًا قبل ارتفاع الأسعار، احتياجات الولدين. أوه نسيت.

ينقر كريم الهاتف بإصبعه، يفتح ملف الصور، يمرر طرف الإبهام على الشاشة بسرعة ويبتسم وهو ينظر للموبايل ثم يمده

نحوي. على الشاشة صورة لطفلين. يردد اسميهما، يعلو صوت القطار فجأة. أشير بالسبابة لأذني، فيهتف:

- هذا آدم عشرة أعوام، وأخوه مالك اثنا عشر عامًا.

***

يمر القطار في نفق، ويخفت صوت اصطكاك الحديد بالحديد. ألتقط خيط الحديث وأقول لكريم:

- أنا أيضًا لديَّ ولدان. أدهم يحتفل ببلوغه الثلاثين بعد أيام ومازن قارب الثانية والثلاثين.

- بعد شراء البيت بأشهر قليلة عُرض عليَّ العمل في وندسور. كنت الثاني على قائمة المرشحين. المرشح الأول على القائمة رفض عرض الجامعة. اختار البقاء في وظيفة مؤقتة في مونتريال مع زوجته وأبنائه. حظ!

- تعتبر نفسك محظوظًا، أليس كذلك؟

- طبعا! ما فيش نسبة. مستقبلي اتبدل. ونظرة الناس لي اتغيرت. الاستقرار مهم ولَّا إيه؟ وبعدين البيت حيروح فين؟ بيت الأسرة في تورونتو، وأنا شقتي مش وحشة في وندسور. أوضة وصالة. فل!

انتبهت وهو ينطق جملته الأخيرة أن لكنته المصرية تشبه لكنتي. وتشبه لكنة ناهد أيضًا. لكن مفرداته قديمة، لا تناسب نهاية العقد الثاني من القرن الواحد والعشرين. فكرت أنه هاجر مثلنا بعد أن أتم دراسته الجامعية. وأنه ونورهان مثلنا، تخرجا في مدارس فرنسية

ثم التحقا بالجامعة الأمريكية. كدت أن أسأله عن مدرسته، ولكني أحجمت. أشعر بأني أعرف الإجابة مسبقًا. هو تخرج في مدرسة الفرير، وهي في القلب المقدس. غالبًا التقيا بالجامعة الأمريكية. وربما التقيا بعد الهجرة. تزوجا وهما في نهايات العشرين. أنجبا بعد إتمامه الماجستير، قبل أو بعد حصولها على عمل بالوزارة.

كيف أعرف الإجابة هكذا، بداهةً، بلا تردد؟ كأني أقابله في القطار منذ سنين. أدير وجهي نحو زجاج النافذة وقد تسلل خوف غريزي مباغت إلى نفسي. ثم في غضون دقائق نمت الرهبة بداخلي حتى سيطرت سيطرة كاملة على تفكيري. توقفت عن أي حديث مع كريم وانتبهت لأن جلبة القطار قد توارت في الخلفية حتى غامت تفاصيل الأشياء والناس من حولي. أحاول استعادة بداية الحديث واللقاء وكأني من خارج المشهد، وكأني مخرج أو مصور يجلس على الجانب الآخر من الممر، يصوب عدسة الكاميرا باتجاهنا وينتظر.

أمد ساقيَّ أمامي، ويمد كريم ساقيه أمامه. أمام كل منا مقعد شاغر. كلانا يعمل بجامعة وندسور الكندية، في الكلية نفسها. كلانا لديه بيت وزوجة في تورونتو. كلانا يسافر يوم الأربعاء باتجاه تورونتو، ويوم الأحد باتجاه وندسور. كلانا لديه ولدان. بيني وبينه عشرون عامًا. وبين كل ابن من أبنائنا عشرون عامًا.

لكن مهلًا. تلك المرآة الافتراضية لا تعكس التشابه فقط، بل تعكس الاختلاف أيضًا. بيننا اختلافات في الهيئة والملبس، في الأسماء وفي العمر، في الاهتمامات الأكاديمية وفي التاريخ الشخصي. نحن بالتأكيد شخصان مختلفان. أقول هذا مطمئنًا نفسي، طاردًا الهواجس، محدقًا في فراغ الحقول. ما معنى هذا؟

هل هي مصادفة؟ ومن وضعنا على طريق واحدة، في الاتجاه نفسه؟ ألتفت وأحدق في وجهه، وأجده هو أيضًا يحدق في وجهي.

- كريم؟

- نعم.

- هل تعرف لينا؟

- لينا عقاد؟

- !!!

- نعم. أعرفها. وأنت؟

اتسعت حدقتا عينيَّ وكأني أشهد جريمة مكتملة الأركان. جريمة انعكاسي في مرآة الزمن بفعل فاعل غير مرئي. وتلك الندبة تحت الذقن التي اجتذبت انتباهي منذ قليل، لم تكن لضحية أغواني التخلص من خبثها، بل لقاتل مثلي، أحد أشباهي الكثيرين في هذا الكون، ألقته الأقدار في مقعد مقابل، وها هو يعرب عن رغبته في أن يقتلني قبل أن أقتله.

أصابني دوار وأحسست بوجهي ينتفخ مثل بالون، والعرق يتصبب على جبيني. مسحته بيدي في إعياء. وكريم يسأل: بروفيسور كمال؟ هل كل شيء على ما يرام؟

لا. لم يكن كل شيء على ما يرام. كيف يعرف لينا؟ لقد رحلت عن وندسور قبل تعيينه. نطق اسمها بعفوية أفقدتني النطق. كأنه خرج من المرآة واتجه نحوي بلا سابق معرفة وقال: أنا أنت. ثم رأيته يقوم ويتجه صوب الحمام. يفتح صنبورًا ويملأ كوبًا ورقيًّا بالماء ويعود به نحوي. رأيته يمد الكوب، ورأيتني أمد يدي وأتناول

الكوب. مرت أقل من ربع ثانية، وتأكدت أني أشرب حين شعرت ببرودة الماء المتسرب من الحلق إلى المعدة. كان يحتفظ بهدوئه ويبتسم في وجهي مطمئنًا. ثم انحنى. اقترب من وجهي حتى كاد أنفه يحك أنفي. وبدت تلك الندبة أسفل الذقن وكأنها تناديني لأفقأها بإصبعي. جفلت وتراجع.

- بروفيسور، آسف. هل تريد المساعدة؟

- كريم. هل أثقل عليك لو ناولتني كوبًا ثانيًا من الماء؟ أشكرك.

***

التقيت لينا للمرة الأولى في اجتماع عمل مع آخرين في مكتب التنشيط الدولي بالجامعة. كان ذلك قبل قيام ثورة يناير. كانت الجامعة على وشك توقيع اتفاقية تبادل طلابي مع الجامعة الأمريكية، وكانت لينا المشرفة على ملف الاتفاقية. بعد قيام الثورة بأشهر، أصدرت الحكومة الكندية تحذيرًا بمنع السفر إلى مصر، وتوقف المشروع. لكننا اجتمعنا عدة مرات في مكتبها، ثم في مقهى «تيم هورتنس»؛ بحجة تبادل الرأي بشأن الملف المصري. اكتشفنا أن خبرتنا بطرق سير العمل بالجامعة متشابهة، وتطرقنا لبعض الآراء الحماسية عن الثورتين في مصر وسوريا. عن البلدين الشقيقين والتاريخ المشترك. ثم صارت اللقاءات عادة أسبوعية وتحولت العادة لضرورة لا غنى عنها، واعترفنا بعد مرور شهرين على لقائنا كزميلين بأن الفروق بين الصداقة والانجذاب والحب باتت واهنة. سقطت لينا مثل ثمرة ناضجة بين ذراعيَّ، وتلقيتها كأنها هدية من السماء.

طاش عقلي. ثم مضى زمن.

في شبابها، تزوجت لينا أمريكيًّا من أصل سوري يمتلك شركة للسيارات في ديترويت، وأنجبت ابنتهما الوحيدة عقب الزواج مباشرة. عملت في مهن شتى في العلاقات العامة حتى انتقلت للعمل بجامعة وندسور في كندا بعد انهيار سوق السيارات في ديترويت في ٢٠١٠. بعد نشوب الحرب السورية، وعلى الرغم من ضائقته المالية، ساهم زوجها بمبلغ كبير من المال لاستضافة ابنة خالتها وأبنائها الثلاثة عن طريق برنامج الدعم الأسري للاجئين السوريين في كندا. كانت أوقاتًا عصيبة. بالطبع لم نفكر في الطلاق. ولم نفكر في الانتقال للعيش معًا بشكل دائم. كنت مستسلمًا لفكرة أن الاستقرار في بيت ناهد من ناحية، وفي حضن لينا من ناحية أخرى، هو الحل الوحيد الممكن لرجل مثلي. وكانت أيضًا ترفض التفكير في إمكانية الانفصال عن زوجها حرصًا على ابنتها الوحيدة وامتنانًا له.

ترددنا لأسباب يصعب حصرها، بعضها يناقض بعضها أحيانًا. خفنا بالتأكيد من تغيير نمط حياتنا. خفنا على أنفسنا، وخفنا أيضًا على الأولاد، البيت، الأسرة، سمعة كل منا المهنية. مضى عامان كاملان في أتون الحب واللهفة والجنون والمغامرة. حلمنا بأن نستأجر بيتًا يطل على نهر ديترويت، بيتًا يبدأ فيه النهار بأغنيات أم كلثوم وفيروز ورائحة القهوة بالهيل والذكريات المحملة بنسائم البلاد البعيدة، وينتهي فيه الليل بعناق ومناجاة وأحاديث ممتدة، نستهلها بالضحك ونختتمها بالقبلات. حلمنا بشكل رومانسي مثير للشفقة ولم نحقق إلا نزرًا يسيرًا من أحلامنا. وبمرور الوقت،

اكتفيتُ أنا بإعادة اكتشاف الجنس والشهوة، والتحرر مؤقتًا من القيود والتوقعات والأماني، محاولًا تعويض البعد عنها في الواقع بحضورها الطاغي في الأحلام.

ثم قضينا عامين آخرين نتأرجح بين الرغبة في الاستمرار والخوف من التغيير، بين استحالة اللقاء في الخفاء واستحالة التخلي عن هذا «الشيء» الذي جمع بيننا. أسميناه أسماء كثيرة. ولم نسمه بما يكفي. كانت تطلق عليه أحيانًا «الحب الممكن»، وكنت أجيبها بأني عاجز عن وصف «العلاقة». اكتفينا بالعناق عن الحديث، ثم مر زمن وصرنا نكتفي بالحديث عن العناق. أدركتُ آنذاك أن الاكتفاء كان عدونا الأول، أو هكذا خيل إليَّ حين ذهب كل منا في طريق. نفس مشاعر النأي التي خلّفتها زيجتي بناهد تكررت بعد سنوات مع لينا. تباعدنا وكان هذا إيذانًا بنهاية لم نرتب لها.

انتظرت قرارها بترك زوجها والاستقرار معي كمن ينتظر أن يجبره أحد على الانتحار. تخيلت أن الضوء الأخضر من جانب لينا سيساعدني على أن أعترف لناهد بما جرى، وأتخفف من مشاعر الذنب ومرارة الكذب والخيانة. ثم كففتُ عن الإلحاح على لينا كي نحدد مصيرنا معًا. تجنبت الحديث في الأمر في العام الثالث بأكمله، وبات حلم الاستمرار مستحيلًا حين أضنتني مشقة التأرجح بين حياتين، وشعرت بوطئها قبيل نهايات خريف العام الرابع.

في ذاك الخريف، خرجنا في جولة بمنطقة الحدائق الدولية بوندسور. يومها بدا لنا بوضوح ما كنا نتجنب الحديث عنه لسنوات. هي لن تترك زوجًا كريمًا عطوفًا من أجلي، وأنا لن أضحي بسنوات العمر مع ناهد من أجلها. لا حب، لا شهوة، لا بيت، لا غناء، لا نهر، لا نسائم، لا شيء في هذا الوجود من شأنه أن يغير مصائرنا.

لم نلتق أنا ولينا لننهي علاقتنا. انقطعنا عن اللقاء في وندسور تدريجيًّا في أثناء العام الدراسي، واكتفينا بالمراسلات في أثناء عطلة الصيف الطويلة. ثم وصلتني منها رسالة مقتضبة على الإيميل تعترف فيها بصعوبة البعد عني واستحالة الحياة معي. تركت لها رسالة على الموبايل أطلب فيها بإيجاز أن نلتقي. لكنها لم ترد.

وكان هذا ما كان.

بعد انقضاء أشهر الصيف، عدت للعمل بنصف عقل، نصف روح، وبلا أمل. أدركت أني أصبت بالاكتئاب حين ألمت بي هواجس الموت، وتمثلته طريقًا يخلصني من اليأس. خفت على ناهد من خيالات الموت والنزوع للتفكير في القتل كلما أمسكت سكينًا، أو وقفت إلى جوارها نطل من نافذة عالية. انهمرت دموعي بسبب وبلا سبب. أدركت ناهد ما أنا فيه، ونصحتني بالذهاب لطبيب نفسي أوصاني بتناول الأدوية المضادة للقلق وبالراحة التامة بعيدًا عن وندسور. استقر بي الحال في تورونتو لمدة شهر، ثم دب شجار بيني وبين ناهد أفضى لانفصالي عنها لمدة عام كامل سافرت أثناءه لمصر وعدت كما رحلت، بل أكثر بؤسًا. لم أهدأ بالًا إلا حين بلغني أن لينا قد عادتْ إلى زوجها في ديترويت، وأن ابنتها تزوجت وأنجبت طفلة هناك. وبرغم قرب ديترويت ووندسور إذ يفصل بينهما نهر وكوبري ونفق، فإن الحد الجغرافي بين البلدين وضع حدًّا لأمنيات العودة وأوهام الغرام.

ثم لا أدري كيف تبدل الحال، ولا كيف عادت إليَّ نفسي. عدتُ من القاهرة وقد بلغتُ الستين، وبلغت ناهد العتبة نفسها بعدي ببضعة أشهر. اختارت ناهد الاحتفال بعيد ميلادي في البيت. زينته قبل

الموعد بأسبوع كامل. جاء الولدان كلٌّ بصحبة صديقته. أرسلت ناهد الدعوات للأصدقاء واشترت الهدايا باسمي وباسمها؛ حيث كنت أتكاسل دومًا في شراء الهدايا لأي أحد مهما بلغت أهمية المناسبة. ثم قضت أيامًا تعد الطعام، ونهارًا كاملًا تختار الثياب المناسبة لي ولها، ونهارًا آخر في منتجع خارج المدينة للعناية بجمالها.

في يوم الاحتفال، بدت متألقة. بل مشعة. كان يومًا مبهجًا للجميع. في تلك الليلة، قالت لي ونحن نأوي أخيرًا للفراش إنها تتمنى أن نبدأ الحياة من جديد. قالت: ربما غاب الحب، ولكن تبقى المودة. وقبلتني على شفتي. قبلة كنت قد نسيت طعمها. بدأ عامي الستون بقبلة. وعدت للعمل. عدت لكتابة ونشر الأبحاث العلمية. عدت بنصف قلب، لنصف الوقت. لكني لم أمت. أقول لنفسي إن نصف حياة أفضل من موت محقق. مُنحنا عمرًا جديدًا في غفلة من الزمن بحساب بسيط وعادي، أنقذنا رقم الستين بما له علينا من سحر. خطوت مع ناهد تلك العتبة يدًا بيد، ولم يعد من سبيل للعودة إلى الوراء.

في ليلة عيد ميلادي الستين، أردت أن أعترف لناهد بما حصل وتمنيت أن تقبلني قبلة ثانية على شفتيَّ، وتغفر لي نزقي وأغفر لها إهمالها لي. أردت أن أتطهر برغم شعوري بأن الحب ليس إثمًا. لكني لم أفعل شيئًا من هذا، وهي لم تسأل. وظل الحال على ما هو عليه. لديَّ أسرار أحميها، وأمنيات لم تزل تؤرق روحي، وتوق للسعادة يتسرب من ثنايا الذاكرة وفي ذيله مشاهد مرتبكة متواترة، تذكرني بسنوات اللهفة والاغتراب والفقد مع لينا، وما تلاها من شعور بالاستسلام والأمان في حظيرة الزواج.

وحدها تلك الرغبات القليلة، المحددة، التي لم يكتب لها أن تتحقق، ظلت عالقة بالحلق كالغصة. الرغبة في حياة ثانية، بل فرصة ثانية في الحياة نفسها، تلك الرغبة الملحة التي أشقاني عدم تحققها فيما مضى مازالت تشقيني استحالة تحققها في الحاضر. عودة غريبة لماضٍ راح وولى تلك التي أستقصيها في أعماق نفسي، لا تقل غرابة عن وجودي الآن في قطار مع شخص يشبهني اسمه كريم، أظن أني سأكره لقاءه مرة ثانية. ولو التقينا مصادفة في القطار فلن أمدَّ يدي بالسلام، ولو جلسنا وجهًا لوجه فلن أرحبَ بأي حديث عابر أو جاد معه.

تترددُ في رأسي كلمة عودة مثل كرة البنج-بونج، وتمتزج الصور والأصوات ببدايات الشعور بالغثيان وتوترات المعدة. أتخيل لو أن كريم عاد لمقعده وعاد المخرج وراء الكاميرا وعاد القطار لوندسور وعادت لينا إلى المحطة وعادت ناهد لبيت حدائق القبة وعدت لأخطبها من أبيها، لو حدث هذا في حلم لصحوت منه شاكرًا أنه مجرد حلم وانقضى. لو عادت بي الأيام لسن الثلاثين لأمزق أوراق الهجرة أو للأربعين لأرفض الوظيفة في مدينة لا تعيش فيها ناهد أو للخمسين لأعترض على فراق لينا لكنت إنسانًا آخر الآن، حرًّا ربما، مقيدًا بقيود أخرى غالبًا، بائسًا في كل الأحوال.

- كانت تعمل بالجامعة قبل التحاقي بها.

- من؟

- لينا عقاد. تسألني عنها، أليس كذلك؟

- آه نعم. تعرفها إذن؟

- أعرفها عن طريق ابنة خالتها. مترجمة متطوعة في مركز مساعدة اللاجئين السوريين بوندسور.

- وآيلين؟

- آيلين شيبرد؟ أستاذة العلوم السياسية؟

- بل آيلين أخرى. لا عليك. اقتربنا من محطة يونيون ستيشن.

- نعم. انتصف الليل. سأطلب أوبر للبيت.

لابد أن نورهان نائمة. وصولي عند باب البيت ولحظة الدخول من أحب اللحظات إلى قلبي. كأن إنجازًا كبيرًا قد تم، كأن الراحة والهناء ينتظرانني في آخر الممر. يكون مدخل البيت مضاءً لأجلي، يكون البيت في انتظاري. مهم أن ينتظرك أحد أو شيء عند عودتك من العمل. تأتيني أحيانًا رائحة الفرن فيسيل لعابي في انتظار المفاجأة. ترى ماذا أعدت نورهان هذه المرة؟ لحمًا وبامية من السوبر ماركت اللبناني «أرز فودز»؟ سلاطة ومخبوزات من أفران صلاح الدين؟ خرشوفًا باللحم المفروم والجبن من مطبخ الكنيسة المجاورة؟ لو كانت في انتظاري، فسأقبلها على خدها وأتبعها للمطبخ وأراها وهي تجهز بعناية وجبة صغيرة أنيقة تضعها على السفرة وتجلس أمامي لنتبادل أطراف الحديث. أما لو كانت نائمة، فسأخرج الطعام من الفرن وألتهمه في المطبخ قبل أن أخلع ملابسي وأنسل إلى جوارها في الفراش. لا تشعر بي كالعادة. تغط في نوم عميق كمن يحلم أحلامًا سعيدة. هذا هو الحضن. أن يلتصق ظهري بظهرها كل أسبوع مرتين أو ثلاث مرات. أليس كذلك؟


كريم ثابت

كان البهو معتمًا على غير العادة. يسقط فوق الشراعة الزجاجية الممتدة بطول الباب، نور شحيح لا يكفي لكي أتبين محتويات الحقيبة الصغيرة. أفتشها بحثًا عن المفاتيح، ثم أفتش جيوبي مرة ثانية ويتأكد حدسي. اختلط عليَّ الأمر وأحضرت مفاتيح شقة وندسور بدلًا من مفاتيح بيت تورونتو. أقف بالباب مترددًا. هل أضغط على زر الجرس؟ ربما يصحو الولدان. آدم تحديدًا متقلب المزاج، لو صحا من نومه عنوة فسيظلّ مستاءً حتى الفجر، وسندفع ثمن استيائه غاليًا؛ أنا ونورهان ومالك. ترى هل نورهان مستيقظة؟ ثمة نور مضاء في المطبخ. ونور خافت يتسلل من غرفة الولدين بالطابق الثاني. فيما عدا هذا، لا شيء. اتصلت بنورهان على الموبايل، جاء صوتها رنانًا حازمًا. تكره التلفون. تقول باقتضاب: من فضلك اترك رسالة. ترددها مرة بالإنجليزية ومرة بالفرنسية، ثم تقول اسمها الأول وترن الصفارة. هل نامت؟ أنقر بعقلة السبابة عدة مرات على الباب الخشبي وأصيخ السمع. لا حركة. لا صوت. أفتش في جيوبي ثانية بحركة آلية. فجأة ينفتح الباب ويهب هواء دافئ من الداخل.

- اللعنة! ماذا تفعلين؟

تقف نورهان بالباب حافية القدمين ترتدي روبًا من الساتان الخمري محكمًا بحزام من نفس اللون حول الخصر وفي يدها

مضرب هوكي. تستعد بشكل مثير للضحك للانقضاض على سارق وهمي. سارق مهذب، يطرق الباب قبل أن يسطو على المنزل.

- وأنت ماذا تفعل؟ ماذا حدث؟

تدعوني للدخول وهي تهمس: تعالَ. نسيت المفاتيح ثانية؟ لا تتوقع إجابة. تنظر في ساعة معصمها وتسأل: هل انتصف الليل؟

قبل أن توصد الباب وتنحي المضرب جانبًا، ترمي بصرها باتجاه شباك مطبخ دونالد. تعرف أن جارنا العجوز لا ينام إلا على صوت ثلاجته القديمة. تتصوره وهو يغطّ في النوم جالسًا على مقعد بمسندين قريبًا من طاولة المطبخ، وعند قدميه تغفو كلبته العجوز لوسي من فصيلة التشاو تشاو بشعرها المشمشي الكثيف وملامحها الأرستقراطية.

رائحة بامية باللحم والثوم.

- كيف حالك يا حبي؟

أقبلها قبلة سريعة على خدها قبل أن تنسحب من المدخل لتفسح لي مكانًا. أعلق معطفي في الصوان المواجه لباب الدخول، وأضع حذائي أمام الباب المفضي للجراج، وأتقدم على أطراف أصابعي فتئز الأرضية الخشبية تحت وقع قدمي.

في المطبخ، رائحة الأرز بالشعرية تأتيني كأنها نفحة من الجنة. أكشف الغطاء عن طاجن البامية فتتصاعد منها بقايا أبخرة وتنز العصائر على سطح قطع اللحم البقري مخلوطة بالبهارات والكزبرة والثوم والزبد.

- رأيت سيارة الشرطة عند مدخل الشارع. هل حدث جديد؟

- حادث سرقة هذه المرة. سطوْا على المنزل ٧١.

- أليس لدى السكان جهاز إنذار؟

- لديهم كلب. لكنه بصحبة أهل البيت في فلوريدا.

تحدثني مديرة ظهرها لي. تغرف الأرز أولًا في صحن عميق ثم تضع فوقه اللحم والبامية، تمامًا كما أحب. تضع الصحن على صينية، وتضع إلى جواره طبق السلاطة الخضراء وملعقة وشوكة وسكينًا ومنشفة ورقية ملونة وزجاجة مياه غازية «بيربيه». تحمل الصينية وتسبقني إلى غرفة الجلوس. أتبعها وأنا أتأمل ظهرها تحت الروب الساتان وكعبيها الحافييْن يضيئان في العتمة مثل أرنبين صغيرين يقفزان فوق حشائش حديقة في الليل.

أضيء نور الأباجورة وأراها تضع الصينية على مائدة صغيرة وتقربها من الكنبة، ثم تنحني وتلتقط شيئًا من الأرض وتبتعد هاتفة:

- آدم يا ربي! ألعابه في كل مكان.

- ابقي معي قليلًا.

مستعطفًا أرجوها أن تطيل الليل. أشتاق إليها ولا أخفي اشتياقي. تعرف، وتبطئ من خطوها لتجلس في مواجهتي.

- أصحو غدًا في السابعة صباحًا، ثم تضيف بغنج: أصبحنا غدًا.

تجلس واضعة ساقًا تحت إليتيها، والساق الأخرى فوق فخذها. ينحسر طرف الروب وتبرز ساقها الملساء وأصابع قدمها الصغيرة

مطلية بطلاء أظافر أزرق. أتمنى لو أقبل كل إصبع على حدة، لو تتركني أمصّ أصابعها الدقيقة بعد العشاء. الساعة جاوزت الواحدة صباحًا، وهي صامتة تقاوم النعاس وتفكر في إمكانية الهرب. أقبل على الطعام بنهم وأسألها عن الولدين.

- حبيبي آدم مدعو لحفل عيد ميلاد أندرو ظهر السبت. ومالك مشغول كعادته، يستعد لمسابقة التمثيل.

- هل اختارت المعلمة مشهدًا من مسرحية؟

- نعم. اختارت مونولوجًا من مسرحية لكاتب أمريكي من أصل مصري. أظن اسمه ستيفن. ستيفن جرجس.

يسبق كلمة «حبيبي» بالعربية اسم آدم الصغير. لا تقول: حبيبي مالك ولا حبيبي كريم إلا نادرًا. أحيانًا تناديني بكلمة «بابا» فأغضب. لا أريد أن ألعب هذا الدور. أريد أن تضعني دائما في مكانة الزوج أو الحبيب.

مالك الابن الأكبر، تقسو عليه أحيانًا ولا تقوى على فراقه أبدًا. لا ينام في بيت أصدقائه، لا يغيب عن حضنها في الليل. تتحدث معه قبل أن تذهب للفراش ربع ساعة كل يوم، تزيد أو تقصر. تدخل الغرفة بهدوء، تجلس على طرف الفراش وكأنها تستجدي القرب منه. أحيانًا يذاكر ولا يلتفت إليها. وأحيانًا يلتفت على الفور ويتحدثان. يضحكان، يتشاكسان، لكنها لا تناديه بكلمة حبيبي. مع مالك تمارس دور الصديقة. ويرفض اللعبة. هي أمه وهو يحبها كأم. الصداقة علاقة تربطه بآخرين خارج الأسرة. وهي تواظب على خلط الأدوار. تدعوني بابا، وتريد أن تكون صديقة ابنها الأكبر.

أما الحب فمن نصيب آدم. الشيطان الصغير، خفيف الروح والحركة، صاحب المقالب المضحكة والصراخ والدموع، صاحب التعليقات اللماحة والنظرة الناعسة والابتسامة العذبة، يوجهها لأمه كلما هلت فتحتضنه وتهدهده وتضحك منتشية فيخرج لسانه لأخيه مستثيرًا غيرته. بين نورهان وآدم تقارب في الأمزجة، وعلاقة تمر من بوابة اللمس والضحك والحكايات. بينها وبين مالك حب وثقة لا يحتاجان لشرح ولا تفسير ولا لمس. مرت أشهر على بلوغ مالك الثانية عشرة من العمر. عندما اكتشف أنه أصبح أطول من أمه بعدة سنتيمترات، أعلن منع العناق بينه وبينها والاكتفاء بلمس الأكتاف أو نقر قبضتي اليد المضمومتين على طريقة الفتيان من جيله. أما «آدم حبيبي» فما زال أقصر من نورهان بعدة سنتيمترات. وما زال يلجأ لحضنها ويقبلها على خدها كل صباح وكل مساء.

- اتصلت بك أليشيا وتركت رسالة. تقول إنها أرسلت لك إيميلًا، وتنتظر الرد غدًا على الأكثر.

- حقًّا؟ سأراجع الإيميل في الصباح.

- لم تخبرني بأنها عادت إلى كندا.

- نسيت. عادت منذ شهرين بعقد مؤقت في وندسور.

- رسالتها مقتضبة، تبدؤها بجملة: «مرحبًا نور وكريم»... وكأننا كنا معًا بالأمس. لماذا وندسور بالذات؟

- حصلت على وظيفة مدرس بعقد محدود. أعلن عنها القسم في الربيع الفائت، تذكرين؟

- جاءت في سبتمبر الماضي إذن؟

- صحيح.

لا أحب نبرة صوتها وهي تستجوبني عن أليشيا. يخيفني احتمال العراك قبل النوم. سيطير النوم من عيني لمجرد ذكر الاسم ولشعوري بأن نورهان تعرف، أو تخمن، أو تتكهن بما قد يحدث بيني وبين أليشيا. ثم إني أشتاق إلى حضنها، ولن يقف شيء ولا إنسان حائلًا بيني وبين عناقها الليلة.

- لم أخبرك. التقيت بدكتور كمال في القطار اليوم. تذكرينه؟

- لا. لا أذكره. من هو؟

- كمال المصري، من قسم الأدب المقارن. زوجته تعمل معكِ بالوزارة. السيدة ناهد غانم. أخبرني بأن زوجته تعرفك جيدًا. قال إن المصريين في المهجر يعرفون الكثير عن بعضهم البعض، لكنهم يتجنبون اللقاء المباشر.

- المهجر؟ هل ما زال الناس يستخدمون هذه الكلمة؟

- غريب أليس كذلك؟

- وهل يعرف أليشيا أيضًا؟

- أليشيا ليست مصرية (أداري استيائي بالابتسام).

بشعرها الأحمر الغزير الذي ينسدل في تموجات سخية وأنفها الدقيق وشفتيها المكتنزتين، ظهرت أليشيا في حياتي مرتين. الأولى في السنوات الأولى من برنامج الدكتوراه، والأخرى منذ شهرين في وندسور. فزعت حين رأيتها مؤخرًا في اجتماع قسم الإعلام. قدمها لنا رئيس القسم: مرحبًا بها كزميلة جديدة بعقد محدود. مهمتها فضلًا عن تدريس كورس الإنتاج السينمائي، تصميم كورس جديد في العلوم الإنسانية الرقمية.

لم تتغير كثيرًا إلا من بعض التجاعيد حول العينين خبأتها تحت نظارة أنيقة وطبقة من المساحيق. لكنتها الفرنسية تشي بأصول من أوروبا الشرقية تختلط بكلمات جرمانية. كانت بولندية الأب، ليتوانية الأم، تعلمت اللغة الفرنسية في سن مبكرة واستخدمتها فضلًا عن الإنجليزية للدراسة والعمل. درست التصوير بكلية السينما، ثم قررت التخصص في هندسة الصوت، ثم غيرت التخصص في السنة الثالثة والتحقت بقسم دراسات الميديا. عملت بشركة إنتاج أغانٍ، وسافرت والتحقت بجامعة «كورنيل» حيث أنهت الماجستير في عامين وعادت لمونتريال لعمل الدكتوراه في الكلية التي التحقت أنا بها، في البرنامج نفسه، في العام نفسه.

رأيتها من ظهرها أول مرة في الممر المفضي لكافتيريا الجامعة. كانت أردافها متماسكة تتحرك بشكل مثير ولافت للنظر في سياق الحرم الجامعي حيث يندر أن يرى المرء فتيات حسناوات يباهين العالم بمفاتنهن. كنت بصحبة زميلة كيبكية نادتها فالتفتتْ وتوقفتْ للسلام وحدث التعارف. ثم اعتذرتْ أليشيا عن الجلوس معنا متعللة بحاجتها لإنهاء قراءة مقال قبل الصف، واختارتْ مائدة بعيدة وظلتْ مديرة ظهرها لنا حتى غادرنا الكافتيريا. لم أصدق أن لون شعرها طبيعي، وسألت زميلتي فاستنكرت السؤال ولم ترد. ما الفرق؟ كل البنات يصبغن شعرهن في كندا. مسألة حرية شخصية.

تقاربنا أنا وأليشيا في محاضرة مناهج البحث ببرنامج الدكتوراه واندمجنا في شلة تضم طوني من أصل لبناني ولوسي من هاييتي وليزا الفرنسية وآخرين. ثم دعوتها للعشاء في بيتي مع الأصدقاء. كنت الأب الوحيد في المجموعة. فرح الجميع بالتعرف على نورهان وبفرصة اللعب مع مالك وآدم، خاصة أليشيا الجميلة.

لم يكن أحد من مجموعة الأصدقاء قد تجاوز الثلاثين أو قاربها فيما عدانا أنا ونورهان. هكذا تحولت شقتنا الصغيرة لبيت العائلة بالنسبة إلى الكل. كانت الشقة مكونة من ثلاث غرف ومطبخ كبير، وكانت تتسع لنا ولعشرة أو يزيد من الأصدقاء يتناثرون بين غرفة المعيشة والمطبخ وغرفة الولدين. يتسلل البعض لبلكونة المطبخ الخلفية للتدخين، أو لغرفة الولدين للتحدث في التلفون أو اختطاف القبلات أو الاستلقاء على الفراش لبعض الوقت.

- أتذكرين طوني زميلنا في برنامج الدكتوراه؟

- بالطبع، هل ما زال يعيش في مونتريال؟

- بل تزوج سيدة فرنسية واستقر في بيروت. أرسل لي صور حفل الزفاف. سيزوران كندا قريبًا، ويتمنى أن يلتقي بنا ويرى مالك وآدم.

- سيدة فرنسية؟ كان منجذبًا لأليشيا زمنًا.

تصر على فتح موضوع أليشيا، وأصر على تجاهله.

نعود معا للمطبخ. تشرع في وضع الصحون في غسالة الأطباق وإفراغ ما تبقى من طعام في علب الثلاجة البلاستيكية وتنظيف سطح البوتاجاز الكهربائي بهمة تجعل إليتيها تهتزان تحت الروب وتثيرانني بحركتهما اللينة. أجمل ما في نورهان أردافها. متماسكة كأنها شابة في العشرين، لكن حركتها تشي بخبرة امرأة في الأربعين. أقترب منها وألتصق بظهرها وأحيط خصرها بذراعي فتتأود. تعرف اشتياقي لها، وتجيب شوقي بإيقاع متمهل. تستبطئني، وأحثها.

- كفاية كده. تعالي.

***

شعر أليشيا السخي يتطاير في ريح نوفمبر البارد، يتراجع للخلف تارة وتارة أخرى يغطي وجهها ويسقط على أنفها الدقيق وعلى شفتيها الحمراوين. تحكم الإيشارب حول رقبتها وتهز رأسها يمنةً ويسرة وهي ترفع عينيها للسماء. الغيوم تنذر بأمطار غزيرة، والبلكونة الخلفية تتسع بالكاد لأليشيا وسيجارتها. أراقبها من شراعة الباب الزجاجية، تلتفت ناحيتي ولا تراني. أقف في عتمة المطبخ بجوار الحوض، أنظف ما تبقى من صحون وأطباق، آدم ومالك ونورهان في الغرفة، يتبادلون أحاديث الليل ووشوشات ما قبل النوم. الساعة الثامنة والنصف مساءً. تأخرا عن موعد النوم المقرر ونورهان تقايضهما: النوم الآن في مقابل فسحة في جزيرة «سانت هيلين» ظهر يوم الأحد. أسمع همسهم ولا أتبين الحديث. عيناي معلقتان بشعر أليشيا وبشفتيها وهما تنفثان الدخان في الهواء. أحب نكهة السيجارة على شفتي امرأة. أحب أن أقبل امرأة بطعم الدخان. تفتح أليشيا باب البلكونة وتعود للداخل وقد احمرت وجنتاها وهاج شعرها. تحمل معها هواءً رطبًا منعشًا، وتهمس بصوت خافت وهي تقترب مني وتلمس بيدها ذراعي لمسًا خفيفًا: هل نام الأولاد؟

تلتفت نورهان وتقبلني فأمتص شفتيها ويختلط لعابي بلعابها. أستنشق أنفاسها المسكرة وأسمعها تتأوه، تحب التقبيل وتطيله، تستجيب لكل لمسة بحركة لينة من الخصر، من الصدر، من

الكتف، من الفخذين. لا أصدق أنها بين يديَّ، طيعة، هشة، برغم ذكرى أليشيا، برغم شبح العمل المبكر واضطراب ساعات النوم. نتحرك باتجاه الممر الواصل بين المطبخ وغرفة المعيشة ونحن متلاصقان. للقبلات صوت، وللأنفاس إيقاع متسارع. نطفئ الأنوار ويأتينا ضوء الشارع شحيحًا، متسربًا بين قطع الأثاث، متكسرًا على جسدينا العاريين. في الطريق للكنبة، تخلصت نورهان من الروب والتي شيرت، وتخلصت أنا من بنطلوني وقميصي وهويت عاريًا بالكامل بين ذراعيها. أناديها بكل الأسماء التي تحبها، وتناديني وتدلني وتدللني ونكتم الصرخة قبل أن تعلو ونتراجع ونعود. أترك لها الوقت والفراغ بين جسدينا. تسبح فيهما وكأنها غائبة عن الوعي ثم تتلاحق أنفاسها، فلا نصل معًا، تصل قبلي وتهدأ حركتها وهي تتهاوى بجسدها فوق جسدي ثم تعود لتحتضنني وتدفعني لاستكمال ما بدأت.

تقف نورهان بالباب تحدق في وجهينا وترد بالعربية على سؤال أليشيا: الأولاد ناموا. تستند أليشيا بيدها إلى ذراعي بينما تتقدم نورهان نحونا وهي تغتصب ابتسامة. تترك أليشيا ذراعي فأشعر ببرودة تتسرب لتلك البقعة من جسدي وكأنما تركت يدها هناك لساعات، وكأنما اشتعل جسدي من لمسة. تخلع معطفها فتظهر تحته بلوزة قصيرة من التريكو الروز بأكمام طويلة تنتهي تحت خط الصدر بحزام من الساتان، وتكشف عن جزء من البطن والسرة. يبدأ خط الجينز بعد سنتيمترات من خط البلوزة ويحدده حزام من الجلد الأسود. خصرها النحيل ناصع البياض يتحرك مثل بقعة ضوء مشعة في عتمة المطبخ. تبتعد لتضع المعطف على ظهر كرسي، وتجلس وهي تسوي من شعرها وتلف عنقها لتواجهنا بدلال. تلاحظ ارتباكي.

- أعرف. تريدان بيبي سيتر لآدم ومالك. الدفع مقدمًا. عشاء فاخر في التراتوريا.

- رائع. شكرًا أليشيا. اتحلت يا نونو.

- إزاي يعني؟ (تتسع حدقتا نورهان في استياء)

- لا تتحدثا بالعربية في وجودي! لا أسرار! تريدان الاحتفال بعيد زواجكما، وأنا متاحة وطيبة القلب.

نعم، كانت أليشيا متاحة، لكن نورهان لم تكن تعتبرها طيبة القلب. ولم تكن لتترك مالك وآدم في رعايتها. تخاف أن تستميل الولدين، أن تحل محلها كصديقة لهما. هكذا أسرت لي نورهان فيما بعد. تكتم الأفكار لسنوات، وتبوح بها فقط حين يتسنى لها التعبير عنها بالكلمات.

لكن مخاوف نورهان كانت دائمًا أعظم من توقعاتي. وكيف لي أن أتكهن بخوفها أن تحل أليشيا محلها فيتعلق بها الولدان؟ تضيف: كما تعلق بها أبوهما. أنكر التعلق من جانبي، وأذكرها بأن ما بيني وبين أليشيا لا يتعدى حدود الصداقة. يزيدها إنكاري عندًا. لا تنكر، تهتف بأسى. رأيت عينيك تحطان عليها. رأيت يدها على ذراعك. رأيت جسدك يميل على جسدها. رأيت طوني ينظر إليكما ويدرك أن شيئًا ما حدث أو يحدث. يرمي كلامًا وينفرط الكلام ليصبح صورًا، وتتحول الصور لواقع لا قدرة لي على احتماله. حين يدعوها طوني للعشاء تشترط وجودك. تعرف أني لا أستطيع أن أترك الولدين وحدهما. النتيجة أنك أنت وطوني تخرجان معها باستمرار. أنت تعرف. أليشيا تجمع الرجال حولها

كما تجمع بطاقات المعايدة. وهي فوق ذلك شخص مريب. ربما كانت جاسوسة بولندية. نعم! من أين لها بتلك الملابس الفاخرة؟ والسيارة؟ والشقة الأنيقة بوسط المدينة؟

استمر هذيان نورهان بشأن أليشيا شهورًا حتى انتصفت السنة الثانية في برنامج الدكتوراه، وشرعنا أنا وطوني وأليشيا في البحث عن أستاذ مشرف والاستعداد للامتحان الشامل الذي يسبق التسجيل. ثلاثتنا نريد التخصص في قضايا الميديا في مصر ولبنان وبولندا، وثلاثتنا نتمنى الحصول على وظائف جامعية تؤهلنا للعمل في كندا وليس في أوطاننا الأم.

تقاربنا في تلك الفترة كثيرًا، وقضينا ساعات في شقة أليشيا لقربها من الجامعة، نناقش الأفكار ونتبادل المشورة والمعلومات عن المشرفين والمشرفات وعن المنح الكندية وعن أفضل السبل للحصول على عقود التدريس وغير ذلك من قضايا تشغل بال الباحثين والطلاب المهاجرين.

مرة واحدة غاب طوني عن اجتماعنا. وصلت فوجدتها ترتدي قميصًا فضفاضًا ينسدل حتى ركبتيها وحذاءً بيتيًا بدون كعب. أعدت بعض الشطائر وقادتني لغرفة نومها. جلسنا نأكل على الفراش، ثم خلعت قميصها وقبلتني. شعرها الأحمر ينسدل على كتفيها وظهرها، رائحته خليط من عطر الليمون والتفاح. وشوشتني بما تريد وانسقت لحضنها بلا تردد. رفعتْ ساقها قريبًا من شفتي فقبلتُها وقبلتُ أصابع قدمها، وانتهينا من الحضن في دقائق. كانت دقائق فائقة النشوة. كأني أحقق أمنية تأخر حدوثها وأثبتُ هواجس نورهان بما لا يدع مجالًا للإنكار أو التراجع. نهضت أليشيا قفزًا

من الفراش واختفت تحت الدُّش، ثم عادت تجفف شعرها أمامي وتستكمل الحديث كأن ما حدث كان حلمًا وانقضى.

لم نكرر المقابلة في شقة أليشيا وابتعدتْ هي تدريجيًّا عن بيتنا وعن الأولاد وعن اللقاءات الجماعية. لم نتحدث عن تلك الليلة من قريب ولا من بعيد، ولم نلتقِ إلا لتناول القهوة في كافتيريا الجامعة ومناقشة موضوعات الدكتوراه وتبادل الأخبار والنكات. وصادف أن اخترنا الأستاذة نفسها للإشراف على الدكتوراه فكانت لنا لقاءات ثنائية معها، فيما عدا هذا لا شيء. اختفت أليشيا كعادتها. طوني هو الوحيد الذي داوم على الاتصال بها، وكان ينقل إلينا أخبارها من حين لآخر. يستقبل أسئلتنا عن علاقتهما المستمرة بابتسامة ماكرة، ويواجه نهمنا للثرثرة بالمزيد من الكتمان.

قبل انتهاء صيف السنة الرابعة عادت أليشيا تطلب المساعدة من الأصدقاء؛ أنا وطوني وآخرين. تريد الانتقال من شقة وسط المدينة لبيت على أطراف حي ويستماونت الراقي، غربي الجبل الملكي. لا تعجبها شقتها الحالية لأنها في الدور الأرضي، ولأن بها غرفة نوم واحدة وصالة صغيرة لا تتسع لاستقبال عدد كبير من الأصدقاء. وافقنا بلا تردد وذهبنا صباح يوم سبت لمساعدتها في جمع الأغراض ووضعها في صناديق. جاءت نورهان، وجاء طوني وليزا ولوسي، وجاء مهندس صوت صديق لأليشيا لم نلتق به من قبل وأحضر معه سماعات صوت كبيرة سرعان ما صدحت بأغنيات فريق الهيب هوب الأمريكي بلاك آيد بيز.

كان يومًا مبهجًا، مفعمًا بالحركة. انطلق مالك في أرجاء الشقة يساعد أليشيا فى رص الكتب في الصناديق وتغليف تماثيل

البورسلين الصغيرة التي تهوى اقتناءها وجلس آدم منبهرًا بالحركة من حوله، يصفق مع الموسيقى ويستعيد ابتسامته كلما داعبه أحد الموجودين. وانطلقت نورهان بهمة تضع الملابس في حقائب السفر، وتطوي الملاءات الفاخرة وتضعها في أكياس شفافة كبيرة. تتوقف برهة ناظرة حولها كأنها تفتش عن شيء، ثم تنسى نفسها وتتقافز على أنغام الموسيقى. طوني يطلب بيتزا بالتلفون وأليشيا تطلب شركة النقل لتؤكد موعد وصول السيارة، ولوسي تخفض صوت الموسيقى الصادح بعد أن اشتكى أحد الجيران، ومهندس الصوت صديق أليشيا الذي لم نلتقِ به من قبل يلف ذراعه حول خصر أليشيا التي ستختفي من حياتنا بعد أشهر قليلة.

***

- أرنبتي؟ هل نمتِ يا نونو؟

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية صباحًا. قررتْ نورهان النوم على الكنبة. تركتْ ساقها تتدلى من تحت الروب، واستقرتْ ذراعها تحت خدها مثل وسادة لينة. تسللتُ من جانبها إلى الحمام ثم هبطتُ بصحبة الكمبيوتر للدور السفلي تحت الأرض، ما يسمونه بالإنجليزية «البيسمنت» أو «كهف الرجل». هذا الروتين الملازم لليلة العودة من وندسور أحب إلى قلبي من أي طقس آخر. وجبة ساخنة، حضن نورهان، بيسمنت. تذكرت وأنا أفتح التلفزيون لمشاهدة الـ «سي إن إن» أن نورهان تخاصم البيسمنت ولا تهبط إليه إلا للضرورة. تبحث عن شيء في المخزن، ترتب غرفة التلفزيون، تشرف على صيانة التدفئة المركزية أو إصلاح

الكهرباء. فيما عدا هذا، لا تطيق البقاء في عتمة البدروم في أثناء النهار ولا تشاهد التلفزيون إلا فيما ندر.

في عطلة نهاية الأسبوع، تفضل القراءة في غرفتها. بعد اشتراكها في مكتبة الحي القريبة، داومت على قراءة كتاب كل أسبوع. تقرأ بنهم سير المشاهير الذاتية خاصة كبار المخرجين العالميين أمثال وودي آلن، فلليني، كوستا جافراس. ومن آن لآخر تقبل على قراءة الكوميكس الإيروتيكي. تقتني مجموعة لا بأس بها من ألبومات رسام إيطالي شهير يدعى «ميلو مَنارا» وتلتهمها في يومي العطلة. يدهشني افتتانها بهذا النوع من الكتب. تترك الكتاب على منضدة مجاورة للفراش وألومها خوفًا من أن يقع في يد مالك. لا تكترث وتنساه كعادتها. في المقابل، تأبى الفرجة على أفلام البورنو معي. أحيانًا ترفض بعنف، وأحيانًا أخرى تخفف رفضها بابتسامة قائلة: دعنا نصنع الحب، هذا أفضل كثيرًا. تدغدغني بحة صوتها في أذني وهي تقول: لتس ميك لاف! وأتعجب كيف أشتاقُ إليها، وكيف داومتْ على جذبي واستثارتي برغم وجود الأولاد وبرغم مرور سنوات على زواجنا. وحين أراها مستغرقة في قراءة ألبومات الكوميكس أعجب كيف يثير الرسم خيالها أكثر من الصور الحية والمتحركة.

التلفزيون يبث أخبارًا عن تبعات الدعوة لعزل دونالد ترامب التي أطلقها الديمقراطيون منذ أكثر من عام، وأثرها على نتائج الانتخابات في شتاء ٢٠٢٠. أنصت بشغف لخبراء الـ «سي إن إن» ونقاشاتهم الساخنة. أفكر أن التغطية الإعلامية لهذا الحدث تصلح موضوعا لبحث الترقية بالجامعة، وربما أيضًا للحصول على منحة من مجلس البحوث في العلوم الإنسانية والاجتماعية الكندي.

أفتح ملفًّا جديدًا على الكمبيوتر وأسطر بعض الملاحظات عن عملية العزل والمقارنة الممكنة بين تغطيات «سي إن إن» و«فوكس نيوز». الأولى تساند الديمقراطيين، والثانية تدعم الجمهوريين، وكلاهما من باب الأمانة الإعلامية يدعو الخبراء من الجانبين للتعليق والتحليل، لكنهما في نهاية المطاف لا يخرجان عن الخط المرسوم لكليهما مسبقًا، سواء للتنكيل بالحزب الحاكم ودعم الحزب المعارض أو العكس.

انشغل بالي بما قالته نورهان عن أليشيا. ترى لماذا طلبتني على الهاتف في البيت؟ لماذا فعلت ذلك برغم إمكانية استخدام الإيميل في المخاطبات الجامعية؟ أطل سريعًا على صفحتها الخاصة على الفيسبوك ولا أجد شيئًا يخفف من حيرتي. آخر بوست لها يعود لأسبوع مضى. صورة لها مع قطتها على أريكة حمراء فيما يبدو وكأنه شقتها الجديدة في وندسور. صور سيلفي لها بدرجات البني الداكن والأصفر تبدو فيها حالمة كممثلات الأربعينيات، وشهية كحبة تمر نضجت. مشاركة بلا تعليق لمقال في النيويورك تايمز عن تهديدات ترامب بالحرب ضد إيران. أغنية «كيكي.. هل تحبينني؟» وتعليق منها يقول إنها فخورة بحصول «دريك» مغنيها المفضل على جائزة «إيمي»، وقراره شراء بيت والاستقرار في تورونتو.

أفتح إيميل الجامعة فأجد رسالة قصيرة منها تقول إنها ترغب في سحب دراستها عن مدارس السينما في بولندا وأثرها على السينما العربية من مشروع كتاب كنت أقوم بتحريره عن تاريخ السينما في الشرق الأوسط. تقول إنها تنتظر أن نلتقي لتشرح لي الأسباب، وتنهي الرسالة بكلمة واحدة: معذرة! كان هدفي من دعوتها هو تشجيعها

على النشر والاندماج في عالم البحث الأكاديمي، وساءني أن تكون هديتي لها مرفوضة. أجلت الرد عليها للغد. وظل السؤال معلقًا: لماذا طلبتني على الهاتف في البيت؟ كان بإمكانها أن تنتظر عودتي. هل أرادت أن تعرف نورهان بوجودها في وندسور؟ ولماذا؟

***

غفوت أمام التلفزيون وأفقت على دبيب أقدام الولدين وهما يهبطان السلم المؤدي للبيسمنت. «سي إن إن» ما زالت تبث أخبارًا عن ترامب والساعة تشير للسابعة وعشر دقائق. يقفز آدم لحضني فورًا، فيما يجلس مالك بجواري قائلًا: ماما تقول إن القهوة جاهزة. صباح خميس مشمس، سأشرب القهوة مع نورهان وأخلد للنوم حتى عودة الأولاد من المدرسة. قبيل الظهر، سأعد لهما طعامًا خفيفًا في انتظار عودة نورهان. ولو واتاني الحظ، فسأنتهي من الرد على بعض الرسائل الإلكترونية قبل العشاء. أفيق من النعاس وصورة أليشيا تلح على ذهني، أشرب القهوة بنصف وعي وأقضي معظم ساعات النهار في الفراش بين النوم واليقظة.

غربت الشمس وعادت نورهان من العمل. قادت السيارة نحو ساعة من المكتب للبيت، وتقلص وجهها بسبب آلام الرقبة والصداع. لا يبسط أساريرها سوى «آدم حبيبي». ما إن دخلت وخلعت حذاءها حتى اندفع يرحب بها. أعلنت على الفور أنها لن تعد طعامًا طازجًا هذا المساء. ستفرغ الثلاجة من بقايا طعام الأمس وقبل أمس، وستكتفي بعمل طبق سلاطة كبير. اعترض آدم. يكره الطعام البايت، ويكره السلاطة. لكن نورهان أقنعته بتسخين بيتزا

مجمدة سابقة التجهيز وطلبت منه مساعدتها في تحضير السفرة في مقابل الخروج لمطعم مساء الغد. يتوقع الخروج يوم الجمعة كعادتنا كل أسبوع، فما الجديد؟ برغم استيائه، أقبل على مساعدتها بهمة وأنهى شريحتين من البيتزا في عجالة ثم اختفى في غرفته. وضع مالك الأطباق في الغسالة وتسلل للبيسمنت، وسمعناه بعد قليل يتحدث في الهاتف مع صديقته.

تكاسلنا أنا ونورهان حول المائدة، أمامنا كوبان من الشاي الأخضر وقطع صغيرة من البقلاوة اليونانية. حكيت لها ما دار بيني وبين بروفيسور كمال. أخبرتها بأنه يستقلّ القطار كل أربعاء من وندسور لتورونتو ويرجع كل يوم أحد، مثلي تمامًا، وأنه تعجب كيف لم نلتقِ من قبل، لكني ذكرته بلقائنا في يوم استقبال الأساتذة الجدد منذ عامين.

- شخصية سينمائية بحق. تجاوز الستين بلا شك. فقد شعره وانحنت أكتافه قليلًا، لكن عينيه يقظتان لم تفقدا حيويتهما. يغفو مثل عجوز طاعن في السن ويصحو مرتبكًا معتذرًا كما لو أن جزءًا من الحديث قد فاته، ثم يكمل ما يظن أننا كنا نتكلم فيه كأنما لم ينم نصف ساعة.

- غريب حقًّا. ما اسمه؟

- كمال المصري. عارف كل حاجة عني. يعرف أني من الظاهر، ويعرف اسمك ومكان عملك. واكتشفت أن بيننا أصدقاء مشتركين؛ لينا عقاد مثلًا.

- بتقول إن مراته في وزارة الصحة، معايا؟

- ناهد غانم. أكيد اتقابلتم.

- مش متأكدة. على فكرة لينا مش صديقتنا. اتعرفنا على سوسن بنت خالتها في وندسور، إنما هي فنعرفها معرفة سطحية.

تتوخى الدقة في كل شيء. كعادتها لا تريد أن تخطئ، وتصحح أخطاء الآخرين بإصرار ودأب. أقول لها أحيانًا: دعكِ من التدقيق. فترد: بل دعك أنت من الأحلام والأماني. كلانا يعرف أن الدقة لا تعني الصرامة ولا ينقصها الخيال، وأن الأماني كثيرًا ما تكون دقيقة ومحددة ولولا ذلك ما خفنا أن تتعثر أمانينا.

أحدق في ملامحها الجميلة عبر مائدة المطبخ، يعجبني شعرها الأسود كشعر أبيها وعيناها الزرقاوان كعيني أمها وبشرتها الخمرية كبشرة بنات الاسكندرية الفاتنات. تختفي آثار الإرهاق من وجهها بعد الطعام والمسامرة؛ فأشعر بالامتنان لها ولحياتي بقربها. حياة كاملة لا يكاد ينغصها شيء، سوى ربما غيرة نورهان، وحدسها الذي يلاحقني أينما ذهبت. لم يقضِ الزواج على اختلافات كثيرة بيننا سببها النشأة والتربية والمزاج الشخصي. هي ولدت في مونتريال لأب مصري مهاجر وأم كيبكية. ماتت أمها بسرطان الثدي وهي في السنة الرابعة بالجامعة. وتزوج أبوها سيدة مصرية وأنجب ولدًا أسماه عمر من زوجته الثانية. بعد عام من ميلاد الابن، قرر الأب العودة للعيش في الاسكندرية. اليوم ما زال عمر مقيمًا مع والديه هناك، لكنه يحلم بالاستقرار في كندا. تقضي نورهان مع أبيها وزوجته وأخيها شهر مايو كاملًا بالإسكندرية، هو شهر إجازتها الوحيد. أحيانًا تصطحب مالك وآدم، وغالبًا ما تسافر وحدها فالولدان مثلي لا يحبان السفر لمصر. في السنوات الأخيرة، ارتفعت أسعار تذاكر

الطيران بشكل جنوني، وأصبحنا نتردد في السفر كأسرة. وفضلًا عن ضيق شقة حماي المطلة على محطة قطار، فإن الضوضاء تقلق نومنا والزحام يضايقني ويزعج الولدين.

من جهة الأم، يتوزع أفراد عائلة نورهان بين مونتريال ومنطقة «اللورانتيد» بتلالها وبحيراتها الخلابة شمالي مونتريال. أقربهم إلى قلبها خالها الذي يعمل طبيبًا ويقيم في مدينة «روان نورندا» النائية غربي مقاطعة كيبك. قبل الكريسماس بعدة أيام يأتي محملًا بأطيب المربات والفوا جرا وعلب الشراب والزبدة المستخلصة من أشجار الميبل. ثم يرحل صبيحة عيد الميلاد ليبدأ جولته العائلية في ربوع كيبك. وقبل انقضاء السنة ينطلق عائدًا إلى «روان نورندا».

نشأت نورهان في كنف أبيها وأمها وكأنها فتاة مصرية خالصة. تستمع لأم كلثوم وعبد الحليم حافظ، تشاهد أفلام نجيب الريحاني وإسماعيل ياسين وفؤاد المهندس، تعشق الملوخية بالبط، تتحدث العربية ولا تقرؤها، لكنتها الكيبكية تختلط بلكنة الفرنكوفونيين من أصول مصرية، تمارس شعائر رمضان مع أبيها وتذهب من آن لآخر لحضور قداس كنيسة سان جوزيف مع أمها، فضلًا عن اجتماعات حزب كيبك الليبرالي الذي كانت أمها تعمل سكرتيرة في إحدى دوائره. تعتبر نفسها مصرية من كندا وتدافع عن حقها كمهاجرة من الجيل الثاني وكيبكية ليبرالية في أن تبقى على هامش الدعوات الانفصالية التي يطالب بها نصف سكان المقاطعة من الكيبكيين، وعلى هامش الجماعات العربية المهاجرة المنغلقة على هويتها الدينية والقومية، وعلى هامش الحياة الثقافية التي يكثر فيها اللغط والنقاش حول القومية الكيبيكية والهويات القاتلة.

تقول فجأة وكأنها توقظني من ذكرياتي:

- أفكر في حجز تذكرة مصر الآن.

- ما زلنا في فبراير. ثم ألم تحذر الوزارة من السفر في ظل الظروف الحالية؟

- أعرف. لكن ثمن التذاكر مناسب الآن. ماذا عنك؟ ستقضي الصيف في تورونتو كالعادة، أليس كذلك؟ لا مؤتمرات، ولا التزامات في وندسور؟

- بلى. سأكون هنا كالمعتاد. بعد عودتك في نهاية مايو قد أسافر بدوري لمصر. نسعى لبيع شقة الظاهر.

أنا الابن الوحيد لعائلة صغيرة من أصول صعيدية نزحتْ إلى حي الظاهر في مطلع الأربعينيات من القرن الماضي. تزوج أبي بأمي في منتصف السبعينيات ثم انفصلا بعد عامين من الزواج وهاجرت أمي مع زوجها الثاني لأستراليا. لا أعرف عنها الكثير، زارتني في كندا وحضرت فرحي أنا ونورهان. تداوم على إرسال الهدايا لمالك وآدم في الأعياد والمناسبات، لكنها تحافظ على قدر من الغياب الممنهج لا تحيد عنه. رباني أبي مع جدي وجدتي ولم يتزوج حتى وافاه الأجل قبل نهاية عقده السادس. درست في مدرسة «الفرير» الأقرب لبيتنا، وكانت جدتي تتحدث فرنسية ركيكة في البيت تعلمتها في مدارس الإرساليات المسيحية بالصعيد ونسيتها بمرور الأيام. في عام ٢٠٠٤، أرسلني أبي لعمل الماجستير بجامعة مونتريال وأقمت مع عمتي في ضاحية «بروسار» الجنوبية. كانت عمتي قد هاجرت بمفردها ضد رغبة العائلة أملًا في حياة

مختلفة. وجدت حال وصولها لمونتريال وظيفة معلمة لغة فرنسية بمدرسة ابتدائية في حي «بروسار». استمرت تعمل بها أعوامًا حتى تزوجت مصريًّا يمتلك صيدلية واستقرت في منزلهم العامر بشارع «البرتغال» كربة أسرة. بعد أن أنجبت سليم الذي يكبرني بنحو خمس سنوات ثم سالي التي تصغرني ببضعة أشهر، تركت العمل إلى غير رجعة.

بيت عمتي كبير، تحيط به حديقة رحبة لها سياج معدني قصير يرتفع على هيئة رماح. كان بيتًا مميزًا بسبب هذا السياج. فعمتي التي كانت تكره كلب الجيران، أرادت الحفاظ على أزهار الحديقة من هجماته المتكررة فقامت بتركيب السور ووضعت لافتة قريبًا من المدخل مرسومًا عليها علامة ممنوع الكلاب. استاء معظم الجيران من السور واستاء بعضهم من اللافتة، وتضامن أولئك وهؤلاء مع الجارة صاحبة الكلب وصاروا يعبرون الطريق إلى الرصيف المقابل بصحبة كلابهم؛ لكي يتجنبوا المرور أمام بيت عمتي. اعتبروا أن اللافتة تحرمهم حقًّا من حقوقهم الطبيعية، ولم يدركوا أن بين عمتي وبين الكلاب عداءً تاريخيًّا لا سبيل لتجاوزه.

أقطع الرحلة من «بروسار» للجامعة في حوالي ساعة وعشر دقائق. أستقل عددًا من الباصات وأتأخر عن موعد المحاضرات الصباحية بسبب الزحام، خاصة في منطقة الاختناق على كوبري «شامبلين» وحتى محطة «بونافنتور». من المحطة أستقل المترو للجامعة أو أمشي لو كان الجو صحوا. في طريق العودة، أطالع بعض المقالات والكتب في المترو والباص، وأعود في المساء «مغسولًا» كما يقول الكيبكيون، لأجد عمتي وزوجها وأبناءها في انتظاري للعشاء. ثم

نتفرق جميعًا. أصحب زوج عمتي للبيسمنت لمشاهدة الأخبار في التلفزيون، وتصعد عمتي لغرفتها لتشاهد المسلسلات العربية عبر شبكة قمر صناعي مسروقة، ويأوي سليم وسالي لغرفتهما يذاكران أو يستمعان للموسيقى. إيقاع رتيب لم يتغير على مدى سنوات إقامتي في بيت «بروسار» وحتى انتهائي من الماجستير في دراسات الميديا ثم زواجي من نورهان. أقضي أشهر الصيف كل عام بشقة الظاهر مع أبي وجدتي، وأعود كل عام في نهاية أغسطس لمونتريال محملًا بأكياس الملوخية المجففة لعمتي وعلب شاي العروسة ومعسل سلوم لزوج عمتي.

- شقة الظاهر هي كل ما تبقى لك في القاهرة. ألا تريد أن تتريث؟

- لم تعد لديَّ رغبة في العودة للمكان. تغيرت ملامحه، ومات كل من أعرفهم، حتى جارتنا الست هيلينا ماتت العام الفائت عن عمر ناهز التسعين. ماتت وحيدة، كل أبنائها وأحفادها في اليونان وإيطاليا وأمريكا.

- وما رأي عمتك؟ أليس لها نصيب من الميراث؟

- بلى. أظن أنها ستوافق على البيع. ألمحت لذلك منذ سنين، لكنها تريد العودة معي والانتهاء من تصفية الأثاث ودواليب الفضية. تذكر كل قطعة باعتزاز كبير. تريد أن تورث بعضها لسالي.

- وأنت؟ ألا تريد الاحتفاظ بشيء من روائح زمان؟

وكيف لي أن أجيب عن هذا السؤال؟ لقد تقطعت خيوط المحبة بيني وبين القاهرة. أصبحت غريبًا عن البيت، وعن المدرسة وعن

الحي بأكمله. خطواتي لا تعرف الشوارع، وعيناي تدركان حجم الخسائر في الحي وفي طبائع الناس، وأنفي لا يشم إلا رائحة العطن وعوادم السيارات. يفاجئني هذا الخليط العجيب من الضوضاء والرائحة الذي ينبعث من البيوت المكتظة المهملة ومن المحال الرثة والطرقات التي لم يعد بها مكان للمارة، يفاجئني ويمحو في كل مرة جزءًا من ذكريات أبي عن الحي العريق في أربعينيات القرن الماضي.

فيما مضى، كان أبي يضفي على تلك الذكريات نفحات من تاريخه الشخصي، مدعومة بالصور والوثائق وبوصف دقيق للمكان وتحولاته كما عاصرها. كنا حين نخرج للنزهة في ليالي الصيف الرطبة، نعيد اكتشاف الحي بعيونه، نلاحظ التغيرات التي طرأت عليه، نتأمل الواجهات النادرة التي حافظ عليها أهلها، ونتحسر على الجامع المهجور وعلى بيوت بها مسحة جمال قديم تبدو كأطلال شبه مهجورة يقطنها سكان موسميون. ثم توقف طقس النزهة بعد إصابة أبي بكسر في الساق وتقاعده عن العمل واستسلامه للاختفاء التدريجي حتى وفاته. في زياراتي المتباعدة لرعايته، كنت أخرج وحيدًا وأعود كتائه فقد بوصلة المكان. لم تسعفني حكايات أبي كي أرتبط بحي طفولتي، ونسيت قسطًا من تلك الذكريات بالترحل والانخراط في حيوات أخرى تبعد آلاف الأميال عن أبي وحنينه للماضي البهيج.

-لا أتصور أن تكون للشقة قيمة بالدولار، لكن أي مبلغ من المال سيساعد في تسديد سلفة البنك.

- ...

- حبيبي، هل تسمعني؟

أسمع ولا أرغب في الرد. تزعجني الأرقام وترهقني حسابات المكسب والخسارة. أهز رأسي يمنةً ويسرة علامة التردد، وأقوم حاملًا أكواب الشاي الفارغة إلى المطبخ.

***

انقضى يوم الخميس سريعًا كعادته. ذابت الساعات في النوم وفي الحديث مع نورهان، واختفى اليوم من الذاكرة كأنما سقط من عداد الزمن. لم ينتهِ أسبوع العمل بعد. لا راحة ولا استرخاء قبل نهاية الغد. بعد ذهاب الأولاد للمدرسة ونورهان للمكتب، أقضي نهار الجمعة في العمل على الكمبيوتر. ساعتيْن للقراءة أو كتابة بحث، ساعتيْن لكتابة مشروع منحة، ساعتيْن للرد على الإيميل، وساعة أو يزيد لتحضير محاضرات الأسبوع القادم. في المساء، نذهب لتناول العشاء بالخارج. نصطحب الولدين لمطعم تايلاندي أو مطعم هامبرجر، يتناويان اختيار المكان كل أسبوع. الطعام الآسيوي اختيار مالك المفضل، والهامبرجر اختيار آدم.

يوما السبت والأحد مقدسان. لا أرد على الإيميل، لا أكتب، لا أقرأ، لا أستمع للرسائل المتروكة على هاتفي في وندسور. أخصصهما للعب مع الأولاد؛ هوكي في الشتاء، كرة قدم في الصيف، كما أحب التسوق مع نورهان وزيارة أصدقائها في الوزارة في حال وجهت لنا دعوة. ثم أقضي ساعات المساء والليل في الكهف، متنقلًا بين التلفزيون والفيسبوك. حتى ينتصف نهار الأحد. حينها ألملم أوراقي وملابسي المبعثرة في كل مكان وأعد الحقيبة للسفر.

حلّ صباح الأحد وجلسنا نتناول القهوة والإفطار على مائدة المطبخ. تقترح نورهان أن نرتب مواعيد الأسبوع القادم. يمسك كل منا تلفونه ونبدأ في مراجعة جدول المواعيد على جوجل. تشكو من ضغط العمل، وتذكرني بأنشطة الولدين المدرسية التي ستفوتني، وتلك التي يمكنني حضورها يوم السبت. نختار فيلمًا نريد مشاهدته في السينما معًا، وتذكرني بسفرها الأسبوع القادم لمدينة كيبك في رحلة عمل. بعد ترتيب المواعيد، نتبادل أخبار الجيران، نتحدث عن ارتفاع أسعار البيوت في منطقتنا؛ منطقة الشواطئ الشرقية بالقرب من بحيرة أونتاريو، ثم نصمت.

تعيد نورهان تسخين القهوة في المايكرويف، وتنتهز الفرصة لتسأل سؤالًا، متجنبة النظر صوبي:

– هل أجبت على إيميل أليشيا؟

كانت قد تجنبَتْ طرح السؤال طيلة الأيام الماضية، لكنها لن تتركني أعود لوندسور دون استفسار، ودون التمهيد لشجار قيد الاحتمال قد تكون أليشيا مدخلًا له، وإن كان دافعه الأصلي والحقيقي الذي تتجنب نورهان الإفصاح عنه هو شعورها بضغط العمل المتزايد وغيابي المستمر عن البيت.

– نعم، منذ يومين. إيميل عمل.

– ألم تعطها رقم هاتفك المحمول؟

– لا، لم أفعل ذلك. ولا حتى رقم البيت. لابد أنها طلبت الرقم من سكرتيرة القسم.

– يا ريت تقول لها ما تتصلش في البيت يا كريم، ممكن؟

– فيه إيه بس يا حبيبتي؟ دي زميلة عمل وانتِ عارفاني كويس. والموضوع ده عدَّى عليه سنين.

***

شارف يوم العطلة على الانتهاء، وسيارة نقل الأثاث تقف أمام مدخل العمارة، مفتوحة الأبواب على مصراعيها تستقبل الأثاث والصناديق والحقائب. الكل يشارك في نقل الأغراض من الشقة للسيارة تحت إشراف أليشيا الواقفة بجوار باب سيارة النقل المفتوح على مصراعيه. تحرس مقتنياتها الثمينة وتدخن. فجأة ظهر في أول الشارع باص المدينة وقد كُتبت على شاشته جملة «خارج الخدمة». تقدم صوبنا بسرعة وتجاوزنا محدثًا جلبة كبيرة ورشاشًا من رذاذ مياه الأمطار الموحلة. وقبل أن نتبين ما حدث، سمعنا أليشيا تصرخ وقد أغرقتها المياه الآسنة من رأسها حتى قدميها.

صاح طوني مستاءً، وانفجرت نورهان في الضحك، وتضرج وجه أليشيا بدماء الغضب. هرعتْ للداخل ونحن على إثرها، وبحركة مفاجئة لنا جميعًا خلعت قميصها المبتل وألقت به على الأرض كاشفة تحته عن حمالة صدر وردية اللون من الشيفون والدانتيل. ركضتْ نحو غرفتها وحذاؤها يترك علامات من الماء والطين على الأرضية الخشبية. سارعت من جانبي بإحضار الخف المتروك عند باب الخروج وتبعتها إلى الغرفة. وجدتها جالسة على أحد الصناديق تنظف الجينز من آثار الماء والوَسَخ وتخلع حذاءها. انحنيتُ بعفوية، تناولت الحذاء المتسخ وألبستها الخف وساعدتها على تنظيف

البنطلون. أضحك لأخفف من حرجها، وتضحك وهي تنحني مقتربة مني بثديين صغيرين يرتجان في حمالة الصدر الرقيقة.

ارتجفَ قلبي وأنا ألمس قدمها وأرفع بصري فألمح حلمتيها تحت الغلالة الشفافة وشفتيْها القرمزيتيْن تكشفان عن صف من الأسنان ناصعة البياض. رجفة دامت لثوانٍ فقط، فما لبثت لوسي أن جاءت بجاكيت أعطته لصديقتها وخرجتا معًا من الغرفة وهما تتصايحان. كان حذاء أليشيا المبتل بين يديَّ وأنا أتبعهما وكانت نورهان غير بعيد تراقب المشهد، ثم تغض البصر وتشيح بوجهها عني. بعد ذلك لزمت الصمت حتى انتهينا من النقل. انطلق طوني يقود سيارة الأثاث للبيت الجديد، وانطلق مهندس الصوت بصحبة أليشيا في سيارته، وودعتنا لوسي وليزا وذهبتا للتسكع في وسط المدينة.

في طريق العودة، وضع مالك السماعات في أذنيه وراح ينصت لأغنياته المفضلة على الآيبود وغفا آدم في كرسيه. تكظم نورهان غيظها بالصمت. يخيفني صمتها ويزعجني إصرارها على أن أدرك وحدي وبلا إشارات واضحة منها سبب حنقها عليَّ. أتحايل على التوتر بالاستماع للموسيقى، بالابتسام الهادئ، أو أدعوها لشرب زجاجة بيرة لو سنحت الفرصة. لكننا في السيارة، منهكون من نقل الصناديق والأثاث، العضلات مشدودة والأعصاب مضطربة، لا مجال لشرب زجاجة بيرة ولا مفر من الشجار. أم كلثوم تصدح من سي دي السيارة «إنت فين والحب فين»، وإحساسي ينبئني أن الأغنية لا تناسب الموقف وتزيده تعقيدًا.

بدأتُ الحديث كما أفعل عادة بسؤال استطلاعي: تعبانة يا حبيبتي؟ ردت باقتضاب: آه شوية. بما يعني أن سبب غضبها ليس التعب،

بل أمر آخر. قلت متوسلًا: طيب نامي. ردت: مش قادرة. ربَّتُ على خدها: فيه حاجة؟ قالت: لأ مفيش. كنت أعرف معنى هذه الجملة بالذات، أعرف أنها إيذان ببداية الشجار، وأن نورهان تكتم غيظها بحثًا عن الكلمات المناسبة.

بعد صمت من جانبي ومن جانبها، قالت بالإنجليزية بنبرة يأس: خيبتَ أملي.

ها قد بدأنا! أحبها وأتفانى في إرضائها وإرضاء مالك وآدم قدر الإمكان، وبرغم ذلك أكون دومًا السبب في خيبة أملها. نظرت إليها نظرة عتاب وقلت مستخدما لغة القلب: ده انت نور عيني يا نونو! ردت بالإنجليزية: هراء! كف عن هذا. ثم هتفت بالعربية: كلهم شافوك مش بس أنا يا كريم. حاجة مهينة جدًّا. لي ولك. اللي عملته كان شيء مش مفهوم. ومش مقبول.

لم أرغب في الرد. تركت الموسيقى تتحدث بالنيابة عني ولذت بالصمت، لكن النغمات لم تأتِ بالأثر المطلوب. صدحت أم كلثوم: «ليه بتتجنى كداع الحب ليه؟»، وران الصمت من جديد على السيارة.

ركزت كل اهتمامي في الطريق، أخاف أن يفوتني المخرج المؤدي لحي سان لوران. بعد قليل بدأ ضغط من نوع آخر. بكت وسمعت نهنهتها. ربَّتُ على يدها واعتذرت. لم تقبل الاعتذار. شرحت أن ما حدث يعتبر طبيعيًّا بين الأصدقاء فرددت بنبرة ساخرة: «طبيعي»؟! قلت إن كل شيء حدث عفو اللحظة ولم تصدقني. ردتْ أن العفوية دليل إدانة. رأتْ في حركة جسدينا أنا وأليشيا توترًا يفسر المشهد ويؤكد ظنونها القديمة. رأتْ وفهمتْ وانتهى الأمر، فما قيمة الاعتراف؟

كانت المرة الأولى التي أشعر فيها بالاختناق في وجود نورهان. بدا زواجي منها كأنه حبل مشنقة يلتف حول رقبتي. تراجع الحب فجأة وحل محله شعور بالأسر، كأني أقف مسلوب الإرادة وراء قضبان وهمية، مضطرًّا لتلفيق الأعذار، سجين اختيارات طبيعية وغرائبية في آن واحد. حتى اختيار الخيانة بدا مثل سجن أفسدته عليَّ نورهان بشكوكها. أتوق لدخوله لكني لا أعرف كيف أنجو منه لو شئت الهرب. كانت نورهان بحساسيتها المفرطة السبب في هذا المأزق، كنت مكشوفًا أمامها كطفل يوم مولده، لا أستطيع أن أتخلى عن حبي لها، ولا أرغب في التنازل عن انجذابي الطبيعي لنساء أخريات. فما العمل؟ قررتُ في نهاية المطاف أن أردد على مسامعها كلامًا عامًّا عن الفروق بين الحب والصداقة وأنا أبتهل للآلهة كي تمر الأيام التالية بسلام.

وفعلًا مرت الأزمة وانقطعت أخبار أليشيا وشلة أصدقاء الجامعة بعد أن انتهيت من الدكتوراه. ثم حصلت نورهان على وظيفة هامة بوكالة التسويق في وزارة الصحة بأونتاريو، وانتقلنا للعيش في تورونتو. عندما ظهرت أليشيا مؤخرًا في اجتماع قسم الإعلام بوندسور تذكرت أن عمرًا قد مر، وأن بيني وبينها حديثًا لم يتم. كنت أرغب في استدراجها للكلام عن تلك السهرة الوحيدة التي قضيناها معا وعن رغبتها المفاجئة في النوم معي، ثم اختفائها وإصرارها على قطع الصداقة. كنت أريد تذكيرها بسنوات الدكتوراه وحثها على الاعتراف ولو قسرًا بانجذابها نحوي. هذه المرة، كنت أيضًا راغبًا في التأكد من مشاعري. أقصد تنشيط تلك المشاعر والزهو بها كأي رجل متزوج في الأربعين يبحث عن مغامرة. أعيش نصف العام

بعيدًا عن نورهان والوحدة بدأت تثقل عليَّ. ولكن ألست أنا من اختار هذا النمط من الحياة؟ ألم ترضَ نورهان باختياري وأقنعتني بضرورة بقائها في تورونتو مع الأولاد؟ ألم تستأجر شقة وندسور بنفسها وترتبها كما يحلو لها؟ ألا يعني هذا موافقتها ضمنيًّا على شكل علاقتنا الجديد؛ زواج وحب عن بعد؟

***

- مش كفاية إننا عايشين «ديستانت لاف» بقالنا سنتين؟

- تاني يا نونو؟!

- أليشيا فهمتْ وعايزة تنتهز الفرصة وترجع لك تاني. كلامها في البيت ما لوش معنى تاني.

- ما فيش معنى أولاني ولا تاني يا حبيبتي. مجرد زميلة بيني وبينها عشرة وصداقة.

- صداقة، صداقة...

- من فضلك بلاش تزعليني يوم سفري.

- يعني هي تزعلني عادي؟

- خلاص تعالي في حضني.

تستسلم على مضض. أعرف أنها بحاجة للتطمين. أضمها لصدري وأضغط بيدي على ظهرها هامسًا في أذنها أنها حب عمري. هي كذلك، لم أكن كاذبًا. كنت وحيدًا، هذا كل ما في الأمر، وكنت مرهقًا من كثرة السفر. وكنت أيضًا أشتاق لأجساد النساء. أشعر بأنه حقي الطبيعي ولا أجرؤ على مصارحتها بما يعتمل في رأسي وصدري.

كيف أشرح لها أنها حبي الوحيد، وأني لا أطيق بعدها، ثم أعترف برغبتي في فتح العلاقة على الطريقة الغربية، حين يتفق الزوجان على الاستمرار معًا شريطة أن يحظى كل منهما بقدر من الحرية الجنسية؟ رضيت بالحب عن بعد، فهل ترضى بعلاقة مفتوحة؟

أفكر أن نورهان التي نشأت في كندا سمعت بأشكال مختلفة من الزواج، وتعرف بلا شك أن العلاقات المفتوحة عادة ما تفشل وتنتهي بالانفصال. وماذا لو سألتني عن حقها في أن يكون لها صديق بفوائد أو عشيق غيري؟ ما هذا الهراء؟ أضطرب اضطرابًا شديدًا لمجرد هذا الخاطر، وأروح أربت على ظهرها بحنان وأستبقيها بين ذراعي كأني أعتذر بلا كلمات عمّا أفكر فيه، وما أنتوي عمله.

- لو حصل حاجة يا كريم، مش عايزة أعرف. فعلا مش عايزة أعرف. باكره الغيرة.

- ما فيش حاجة حتحصل. ممكن بقى تتطمني وتهدي؟

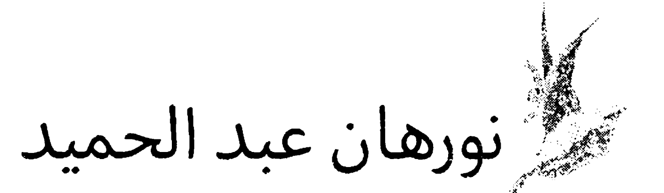
قبيل الثالثة ظهرًا، تخفت حدة التوتر وتبدأ نورهان في إعداد علب الثلاجة بأغطيتها الملونة وأحجامها المتنوعة. تملؤها بأطعمة شهية من صنع يديها، وتتأكد من إحكام غلقها وتضعها بعناية في حقيبة مبطنة بعازل فضي لحفظ الحرارة. يعطيني آدم رسومًا ملونة بالرصاص ويوصيني بأن أعلقها على الثلاجة في شقة وندسور، ويقبلني مالك ويعرض عليَّ أن يحمل الحقيبة للسيارة. نغادر البيت على عجل؛ فالرحلة لمحطة القطار تستغرق نصف ساعة والطرق مزدحمة. أربت على ساق نورهان من آن لآخر، وأعدها قبل الوصول ليونيون ستيشن بأني سأتصل بها على الهاتف كل صباح

وكل مساء. صباح الورد يا حبيبتي، تصبحين على خير يا قطتي. تبتسم، وتأتي ابتسامتها إيذانًا بانقشاع الغمة.

من القطار، أرسل للولدين رسالة على ماسنجر. أتمنى لهما أحلامًا سعيدة، وأذكرهما ببعض المهام العاجلة في المدرسة والبيت. ثم أبعث لنورهان برسالة حب مقتضبة. أذكرها بتشغيل جهاز الإنذار قبل أن تغادر المنزل كل صباح، وأسألها أن تطمئنني برسالة كلما تسنى لها. ترد بأنها لا تنسى جهاز الإنذار أبدًا، وأن دونالد يراقب البيت معظم النهار من نافذة مطبخه. تذكرني أنها ستسافر الأسبوع القادم لكيبك سيتي في رحلة عمل، وتؤكد على ضرورة حضوري مساء الأربعاء لأن طائرتها تقلع صباح الخميس. أرسل لها إموتيكون وجهًا ضاحكًا عيناه قلوب حمراء. وتجيبني بعلامة أوكيه؛ إصبع ضخمة مرفوعة في يد زرقاء هائلة تنهي حوارنا المختصر مثل صفعة باب.

كان القطار قد قطع نصف المسافة لوندسور حين عادت مونتريال وذكريات مونتريال تخايلني، تطفو تارة وتتوارى تارة أخرى في متاهات الذاكرة. شرعت في قراءة كتاب استعدادًا للنوم وأنا أسأل نفسي: هل سافرتُ مع الدكتور كمال وهو لا يراني، أم أنه سافر معي وأنا الذي لا أراه؟

غفوتُ لحظات. ربما دقائق. وحين أفقت كان ينظر إليَّ ويبتسم في ود. لم أشعر بمجيئه. كان يضع الكمبيوتر على ساقيه ويضع فوقه كتابًا تعرفت على غلافه على الفور. كتاب الباحث الإيراني «حميد دباشي» عن الربيع العربي. عدلتُ من جلستي المسترخية وضممتُ ساقيَّ الممدودتين في الفراغ الفاصل بين المقعدين معتذرًا بالإنجليزية. فبادرني بلهجة مصرية سليمة: خليك على راحتك!


نورهان عبد الحميد

الخميس السابعة صباحًا، مطار «لستر بيرسون» بتورونتو. حركة المطار هادئة. يتناثر عدد من المسافرين بين طاولات المقاهي المنتشرة في الساحات والممرات المفضية لبوابات الإقلاع. السترات داكنة، زرقاء أو رمادية، والقمصان بيضاء وزرقاء ولبنية، أربطة العنق أنيقة والإيشاربات باذخة الألوان، الأحذية لامعة، تعلو كعوبها للنساء، وحقائب السفر مصنوعة من الفايبر الفاخر. يدارون التعب تحت الثياب الملساء والابتسامات المقتضبة والخطوات الواثقة. موظفون وموظفات، رجال ونساء أعمال، سياسيون. يسافرون في رحلات قصيرة ويعودون منها منهكين، مثلي. لكنني لا أشبههم ولا يفوتهم أني غريبة، بشعري الأسود وملامحي العربية التي لا تخطئها العين. لا يفوتهم أن ملابسي ليست باهظة الثمن، برغم أناقتها، مقارنة بملابس سيدات الأعمال. وأني سأستقر مثل عموم الموظفين والموظفات على مقعد في مؤخرة الطائرة. ملبسي وحقيبتي يشيران لكوني موظفة في الحكومة الإقليمية أو الفدرالية، موظفة عمومية تكافح كي تصعد. تقول فريدة زميلتي في الوكالة: لا تكوني واعية بذاتك طول الوقت. اصرفي ذهنك عن نفسك ولا تطيلي النظر إلى الناس من حولك. تقول وهي تبتسم: صُنعت الهواتف النقالة لهذا الهدف تحديدًا.

أتذكر كلمات فريدة فأغض بصري، وأنشغل بفتح الهاتف ومراجعة صفحتي على الفيسبوك.

معظم المسافرين يطالعون هواتفهم أو الآيباد، قليلون يفتحون الكمبيوتر. بعضهم اشترى قهوة وتركها تبرد، والبعض الآخر يأكل حبات لوز محمص من كيس صغير ابتاعه من محال «One Minute» الرائجة. الطائرة المتجهة لمدينة كيبك تقلع بعد ساعة والرحلة تستغرق ساعة ونصفًا. أستقر على مقعد في مواجهة بوابة الخروج، وأتلهى بمراجعة التذكرة وبطاقة الإقلاع.

ثلاثة أحرف تشير لكود مطار بيرسون «واي واي زد». أبحث عن معنى للكود على الإنترنت ولا أجد شيئًا. هو كود يحدده الاتحاد الدولي للنقل الجوي والمطارات؛ إياتا. أفتح صفحة المطار على ويكيبيديا، ومنها أنقر على اسم «لستر بيرسون» فتظهر صفحته على الموقع. حصل على جائزة نوبل للسلام قبل أن يصبح رئيسًا لوزراء كندا في الستينيات. تعلمت هذا في المدرسة ونسيته. حصل على الجائزة؛ لأنه نظم قوات الطوارئ التابعة للأمم المتحدة والمسئولة عن حفظ السلام بمنطقة الشرق الأوسط إبان حرب السويس. كان أبي يشير إلى الحرب بتعبير العدوان الثلاثي على مصر. أتفق معه على تسمية الأحداث بأسمائها وعلى كره العدوان.

سمعت في بيتنا أحاديث معادية للسياسات البريطانية ولثقافة الهيمنة الأنجلو سكسونية في غمار تعليقات أبي على الأوضاع في مصر، وتعليقات أمي على الأوضاع في كيبك. سمعتهما يرددان أن بريطانيا قوة استعمارية معادية للعرب والكيبكيين، ويتفقان على ضرورة سيادة الدولة الكيبكية وتحريرها من التبعية لبريطانيا. يضيف

أبي: تمامًا كما تخلصت مصر من الاستعمار على يد عبد الناصر. أتذكر خالي وهو يزوم. لا يعجبه تشبيه مصر بكيبك. يقول عن قناعة إن حرية تحديد المصير لا خلاف عليها، ويردد جملة ديجول الشهيرة التي هتف بها في معرض مونتريال ٦٧: يحيا كيبك حرًّا! هذا دأب خالي، يخلط الأزمنة والأماكن والأحداث بشكل غرائبي. الفتاة ذات السنوات العشر التي كانت تنصت لأحاديث الكبار في نهاية الثمانينيات تنظر حولها بعد انتصاف التسعينيات فلا تجد ملاذًا من فوضى هويتها الثنائية سوى الشك فيما يقال، واللجوء للعلوم الطبيعية لتفسير العالم. ترغب في الوقوف على أرضية أكثر ثباتًا وأقل تحزبًا. هكذا اختارت دراسة علوم الصحة الأبعد عن نمط عمل أبيها في الجريدة، والأبعد أيضًا عن طبيعة عمل أمها بالحزب الليبرالي بكيبك.

باستثناء «لستر بيرسون» الذي أعرب أبي عن احترامه له أكثر من مرة، لم تكن للفدراليين مكانة طيبة في المحيط العائلي، وعلى الأخص في محيط خالي بمنطقة «روان نورندا». نسيت أن أهاتفه لأعلمه بزيارتي القصيرة لكيبك. سأحاول الاتصال به بعد الانتهاء من العمل. باتت تلك المهام العائلية ثقيلة على نفسي، لا أدري سببًا لذلك. ربما نتيجة لاغترابي عن المحيط الفرنكوفوني في تورونتو. فقد أصبح طبيعيًّا بعد زواجي بكريم وانغماسي في دوائر الجالية المصرية ألا نتحدث أنا وخالي إلا في المناسبات والأعياد. يؤرقني هذا الخاطر فأكتب في روزنامة اليوم: الثامنة مساء، مكالمة لخالك.

أتابع البحث على الهاتف. حصل «بيرسون» على نوبل للسلام بعد حرب السويس مباشرة سنة ١٩٥٧، وكان وقتها وزيرًا للخارجية.

بعد أربع سنوات من هذا التاريخ، أصبح رئيسًا لوزراء كندا وأدخل نظام الصحة المجانية «Medicare» الذي تعمل به اليوم الوزارات الإقليمية مثل وزارة الصحة بمقاطعة أونتاريو ومثيلتها في مقاطعة كيبك. أكتب في محرك البحث على ويكيبيديا اسم السياسي الكيبكي «جان لوساج» الذي سُمِّيَ مطار كيبك الدولي باسمه. هو أقل بريقًا وشهرة على المستوى الفدرالي من قرينه «لستر بيرسون». كان «لوساج» رئيس وزراء مقاطعة كيبك بين عامي ١٩٦٠ و١٩٦٦. ارتبط اسمه بالثورة الهادئة التي اجتاحت المجتمع الكيبكي في الستينيات، وحولته من مجتمع خاضع لسلطة الكنيسة الكاثوليكية لمجتمع يؤمن بالعلمانية وبدور دولة الرفاهية في تحقيق الرخاء للمواطنين.

درست تاريخ القادة السياسيين الكنديين في المدرسة. لم نكن ندرس تاريخًا في المدرسة سوى تاريخ كندا، ثم تاريخ الحربين العالميتين. كيف نسيت التفاصيل والأحداث؟ وهل لو سئلت عن تاريخ مصر في الحقبة نفسها فستكون لديَّ إجابات وافية؟ قد يكون كريم أكثر دراية مني بالتاريخ المصري فهو من أبوين مصريين، كما أنه أكثر اطلاعًا وأشد التصاقًا بجذوره فيما يبدو. برغم ذلك لا يحب العودة إلى مصر مثلما أعود أنا إلى الإسكندرية، فأمه تقيم في ملبورن وأبوه رحل عن عالمنا منذ سنوات. يجول بخاطري أني أكثر مصرية من كريم برغم أني ولدت في كندا، وأبتسم لأن هذا الرأي يثير حنقه وغيرته كما أنه أصبح مادة للتندر بين أصدقائنا.

لا أحد يعرف كيف يكون مصريًّا أصيلًا في الغربة. الكل يتفق على عدد من الطقوس الهامة المرتبطة بالأعياد والاحتفالات،

طريقة ما في تحويل أي موضوع جاد لفكاهة، فكرة التمسك بالتعليم والوصول فيه لأعلى المراتب، وأفكار أخرى تخص شكل العلاقة بين الزوج والزوجة والأبناء لم تتطور بالنسبة إلى الكثيرين عن سنوات ما قبل هجرتهم لكندا.

***

الناس مستغرقون في مطالعة الأخبار على هواتفهم. يقرءون بتأنٍّ ويجربون تخزين المعلومات في الذاكرة. الكل يعلم أن قراءة الأخبار مهما بلغت قوة تركيزها تظل فعلًا جاحدًا. فالناس ينسون في غضون أسابيع أو أشهر ما هم منهمكون الآن في محاولة فهمه وتفسيره. أتصور أني كففت عن متابعة الأخبار منذ زمن، حتى إن مالك وآدم حبيبي يتهمانني بالجهل السياسي، ويتشاركان مع كريم في الولع باستذكار أسماء السياسيين وانتماءاتهم، تمامًا كما تعنيهما كثيرًا تشكيلات فرق الهوكي وأسماء اللاعبين، وحركة البيع والشراء بين الأندية المختلفة التي يتابعانها بشغف.

برغم ندرة المسافرين واستسلام معظمهم للصمت، تنبعث الضوضاء من حيث لا يعلم أحد؛ من زنة النيون وأضواء المحال والمقاهي وكركرة السلالم المتحركة واحتكاك الحقائب بالأرض ورنين الميكروفون العمومي الذي يبث معلومات ويهتف باسم المسافرين وهدير الطائرات المكتوم وذبذبات الأرض التي لا نكاد نشعر بها من تحتنا وحركة المسافرين جيئة وذهابًا بين المحال التجارية، والمصاعد، والسلالم المتحركة، والبوابات. يخيم جو موحش على المطارات، «بيرسون» ليس استثناءً. وحشة مصحوبة

برائحة كاوتشوك محترق تثير لديَّ شعورًا بالغثيان يبدأ من الأنف، ثم ينتقل إلى المعدة ويهبط للساقين فأشعر بالثقل والدوران.

أحاول أن أصرف انتباهي عن نفسي وأروح أراجع ترتيبات اليوم: أصل لكيبك قبل العاشرة بقليل وأتجه فورًا للاجتماع بزملائي في وكالة التسويق الكيبكية في تمام الحادية عشرة. أذهب إلى الفندق في نهاية الظهيرة وأتناول عشاءً مبكرًا في غرفتي. بعد ذلك، أنهي كتابة تقرير عن الزيارة أسلمه لرئيستي السيدة كلارك في تورونتو ظهر اليوم التالي. أكتب على ماسنجر رسالة لكريم أطمئنه على مسار اليوم، وأسأله عن الولدين. يعطيني كعادته معلومات مسهبة عن تطورات اليوم في البيت والمدرسة، أقرؤها في عجالة ولا أرد إلا لو احتاج الأمر لتدخل مني. صباح اليوم التالي، أستقل طائرة العاشرة والنصف لأصل مكتبي بالوزارة يوم الجمعة بعد فسحة الغداء. أنهي يوم العمل في نحو الثالثة مساءً وأعود إلى البيت بالسيارة. أقضي ساعة أو أكثر على الطرق السريعة، أستمع لأغنيات شرقية قديمة وأدندن معها فتهون المسافة.

تعطيني تلك السفرات القصيرة الحق في عطلة يوم الاثنين أقضيها وحدي بالبيت. أستمتع بالهدوء بعد سفر كريم وخروج الولدين للمدرسة. أبقى بالداخل لو كان الجو غائمًا، وأخرج في نزهة لو أشرقت الشمس. ربما يدعوني دونالد لتناول الشاي في مطبخه، أو في الشرفة لو كان الجو صحوًا، وربما أذهب سيرًا على الأقدام حتى شاطئ بحيرة أونتاريو وأستمتع بالفرجة على المحال وتناول القهوة على تراس أحد المقاهي. لكننا في نهاية فبراير، ولا أتوقع أن يذوب الجليد قبل شهر ولا أن تفتح المحال شرفاتها قبل انتصاف مايو.

تحين مني التفاتة صوب اليمين. غير بعيد عن البوابة المؤدية للطائرة، ألمح ثوبًا أبيض في كيس من البلاستيك الشفاف ينبسط على ثلاثة أو أربعة مقاعد، ويكاد طرفه يلمس الأرض. ثوب فرح. تجلس بجواره سيدة في الستين أو أصغر قليلًا لا تحمل هاتفًا، ولا جريدة، ولا مجلة، ولا حقيبة سفر. تحمل حقيبة جلدية ماركة «Gucci»، تعلقها على كتفها اليسرى، وتهبط عابرة منطقة الصدر إلى الجانب الأيمن من خاصرتها. ترتدي بنطلون جينز وسترة قطنية تحتها تي شيرت وحذاءً رياضيًّا أزرق نعله أبيض مفلطح. تتطلع من حولها متأملة وجوه المارة والموظفين الحكوميين، وتبدو مرتاحة معتدة بذاتها. بعد قليل ألمحها تفتح حقيبتها، فأتوقع أن تخرج هاتفها مثل معظم الركاب، لكنها تخرج إصبع زبدة كاكاو وتمرره على شفتيها عدة مرات ثم تعيده للحقيبة وترفع بصرها فتتقاطع نظراتنا برهة. أغض البصر وأعود لهاتفي.

صوت المضيفة يصدح بالنداء على ركاب الطائرة. يلتقط المسافرون النداء وينشطون لجمع أغراضهم، فيما يسرع أكثرهم حيوية للوقوف في مقدمة الصف. تتهادى السيدة حاملة الفستان الهائل باتجاه الطابور. تصل قبلي بخطوتين، فأدعوها للوقوف أمامي بابتسامة وهزة من الرأس. عن قرب، تبدو لي من أصول عربية، لكني لا أغامر بالتخمين. هنا يعتبر الجميع أنفسهم كنديين، ويستاء البعض لو سئل عن أصوله العرقية. تحتل السيدة مكانها في الطابور وتطوي كيس الفستان على ذراعها طيتين، ثم تلتفت نحوي وتسألني بفرنسية ركيكة: رحلة عمل؟ أجيبها بالإنجليزية: نعم. تعودت عليها. ثم أضيف مومئة للفستان بذقني وعيني: وأنتِ؟

تجيب: هذا ثوب ابنتي. أهنئها ظنًّا مني أن ابنتها في سبيلها للزواج، فتبتسم وتجيب: لا، تزوجت منذ عام واحد وتركته في خزانتي. سأعيده إليها لكي أفسح مكانًا لأغراضي.

يتقدم الطابور بطيئًا، يخرج معظم الركاب رخصة القيادة لمراجعة الاسم على بطاقة الإقلاع. تخرج السيدة من حقيبتها جواز سفر أمريكيًّا. تسأل المضيفة عن إمكانية وضع الفستان في خزانة درجة رجال الأعمال. تجيبها المضيفة بود: سيساعدونك عند باب الطائرة. في نهاية الممر المفضي لباب الطائرة، يتشكل طابور صغير آخر، تسبقني السيدة بصحبة أحد المضيفين ناحية الدرجة الأولى وأتقدم أنا صوب مقعدي بجوار النافذة في الصفوف الأولى من الدرجة الاقتصادية.

ما إن أجلس وأربط الحزام حتى أغمض عينيَّ تجنبًا لحركة الركاب وجلبتهم. حين أفتحهما، تكون الطائرة قد تحركت على ممر الإقلاع وتكون السيدة صاحبة الفستان جالسة إلى جواري، يفصل بيني وبينها مقعد شاغر. تقول حين تراني أنظر إليها: رحلة سعيدة. وأجيبها بمثلها. تقلع الطائرة وسط جلبة السراوح والمحركات وتوجس المسافرين وحركة المضيفة المترنحة في الممر. أغمض عينيَّ مرة ثانية وأبتهل ألا يصيبني دوار في أثناء الرحلة. لن أتناول حبة الدواء المضاد للغثيان؛ لأنها تصيبني بنعاس يلازمني لساعات.

بعد الإقلاع بدقائق، تمر المضيفة وزميلها لتقديم أنواع من الصودا والعصائر وأكياس المقرمشات المملحة. تطلب جارتي عصير الزنجبيل المنعش، وأطلب الشيء نفسه. بعد رشفتين يبدأ الحديث وكأنه استكمال لما كنا نقوله ونحن في الطابور. تسألني

عن عملي. أجيبها بأني موظفة بوزارة الصحة في أونتاريو، وأسألها عن عملها فتقول باقتضاب: مصورة فوتوغرافية. أطلق آهة تعجب وأنا أبحث في ذهني عن تعليق مناسب على مهنتها. لم ألتقِ بمصور أو مصورة من قبل. بعد برهة أسألها إن كانت تعمل بالصحافة. تجيب بالإيجاب. ثم تضيف أنها تكتب تحقيقات مصورة. أسألها عن الصحف التي تكتب فيها. تجيب: عملت بمجلة «ناشيونال جيوجرافيك» زمنًا. والآن لي كتابان في التصوير؛ الأول بعنوان «رحلة إلى المخيم»، والآخر بعنوان «قرمزي» عن الثورة السورية. أسألها إن كانت تكتب بالإنجليزية. تومئ برأسها علامة التأكيد وهي تبتسم. ثم تردف: وبالفرنسية أحيانًا، برغم أني لا أتقن النطق بها. وحين أتعجب أنها أمريكية وتكتب بالفرنسية، تقول إنها تخصصت في الترجمة من الفرنسية إلى الإنجليزية في الجامعة، وقدمت في شبابها ترجمات إنجليزية لأشعار «فيرلين» و«لوتريامون».

ألوذ بالصمت. كأني نسيت أسماء الشعراء الفرنسيين الذين قرأت عنهم ولهم أيام المدرسة، تمامًا مثلما نسيت دروس التاريخ. أتذكر فقط شاعر كيبك الأشهر «إميل نليجان». أسألها عنه وتجيب بنبرة اعتذار مهذبة أنها لا تحب أشعاره. ثم ينقطع الحديث حين تعود المضيفة لجمع علب الصودا الفارغة والأكواب البلاستيكية والقمامة. أحمد المصادفة على تلك الفسحة من الوقت التي تمكنني من تجنب الحديث في الأدب. ربما توقعت أن أسألها عن موضوعات كتبها، لكني لم أفعل، ويبدو أنها ارتاحت للصمت. أفكر في أن أسألها عن مكان سكنها في أمريكا، عن سبب سفرها عن طريق تورونتو إلى كيبك، عن ظروف وجود ابنتها هناك. كلما عَنَّ لي

موضوع لفتح الحديث مجددًا، بدا لي إشكاليًّا نظرًا إلى خصوصية تلك الأمور ونفور الناس من الخوض فيها، خاصة مع الغرباء.

- اسمي داينا سليمان. وحضرتك؟

- نورهان. بتحكي عربي؟

- إيه. خلقانة هون بكندا، بس هاجرنا ع أميركا وأنا لساتني صغيرة. قصة طويلة ما بدي أصرعك فيها.

- أنا مصرية. إتشرفنا.

- الشرف لإلي.

- مقيمة فين في أمريكا؟

- ديربورن. زرتيها؟ مدينة هادية وما حلوة كتير. بس خلاص اتعودنا. عندك أولاد؟

- أيوه، ولدين.

- رب يخليلك ياهن.

***

تصورت من لكنة جارتي أنها لبنانية الأصل. وربما كانت سورية. ليست لديَّ خبرة كافية باللهجات العربية. ربما كانت في نهايات العقد الخمسين أو بداية الستين، لكنها تتمتع بحيوية وبساطة تجعلانها تبدو أصغر سنًّا. ذكرتني لكنتها بحبي الأول عندما كنت في العشرين. بسّام الحايك؛ مساعد أبي في الجريدة. كانت أمي قد غادرت الحياة بعد معاناة مع السرطان حين وقعت

لأول مرة في الحب. يحدث هذا في سنوات الشباب. إثر حادث أليم أو فقد موجع نسارع بالوقوع في الغرام، نقاوم الألم بوخزة لذيذة في القلب.

ولد بسّام في حلب وهاجر إلى كندا في شبابه. تنقل بين أعمال كثيرة وضيعة لا تناسب قدراته حتى استقر به الحال في جريدة أبي، وكانت قبل توقفها من بين أفضل الجرائد ثنائية اللغة، تصدر مجانًا بالعربية والفرنسية لأبناء الجالية العربية بمونتريال وتوزع توزيعًا محدودًا للغاية في مدينة مونتريال وكيبك سيتي وجاتينو. كان بسّام يكبرني بنحو عشرين عامًا، وكان متزوجًا بسيدة كيبكية تكبره بعامين أو ثلاثة وتعاني من اكتئاب مزمن. بين العائلتين علاقات تزاور. أمي تعرف زوجته وتتجنبها، وأبي رئيسه في الجريدة ويساعده في الترقي وظيفيًّا في مجال إدارة التحرير.

كنت أحب لكنته السورية، وكان يحب لكنتي المصرية. يحاكي كل منا لكنة الآخر وننطلق في الضحك والغمز. بعد وفاة أمي داوم على زيارتنا. يأتي في المساء، يتناول القهوة مع أبي ويتجاذبان أطراف الحديث حول العمل والشئون العربية والكندية ثم يرحل قبل حلول الليل. في الخريف الذي تلا وفاة أمي، التقيته بالجامعة. كان يريد شراء روزنامة العام الأكاديمي الجديد، تلك التي تبدأ في شهر أغسطس من كل عام. قال إنها متاحة فقط في مكتبة الجامعة. صحبته في جولة طويلة عبر الممرات والطرق الجانبية والكباري الصغيرة المنتشرة هنا وهناك داخل الحرم الجامعي حتى وصلنا للغابة المتاخمة لمبنى كلية الموسيقى. بعدها عدنا أدراجنا للكلية طلبًا للدفء وتناول القهوة في كافتيريا الطلبة. مضى الوقت هينًا كما

يحدث بين صديقين قديمين. كتب في الليلة نفسها يشكرني على المساعدة في جولته الشرائية القصيرة، ويدعوني (لو سمح الوقت) بأن أكون رفيقته في المشي إذ هو بحاجة لشابة مثلي (يضحك) لكي يستعيد نشاطه البدني بعيدًا عن الجريدة.

التقينا بعد ذلك عدة مرات لممارسة المشي الرياضي في منتزهات متفرقة بالمدينة. في المرات الأولى، أحضر معه قهوة وشوكولاتة. ثم أهداني عددًا من ألبومات الكوميكس الفرنسية بعد أن عرف أني أهوى قراءتها. ولمّا نمت صداقتنا عرّفَني على ألبومات «ميلو مَنارا» الإيروسية. كان يستعذب تصفحها والفرجة على بطلات مَنارا الفارعات، بسيقانهن الرفيعة واستدارة مؤخراتهن المثيرة. فتحت لي تلك الألبومات عالمًا لم أكن أعرفه من قبل يجمع بين المغامرة والتاريخ وحكايات الحب الرومانسي الذي لا يخلو من عنف وشبق. داومت على شرائها منذ ذلك الحين وحتى صدور ألبوم «كرافاجيو» برغم اعتراض كريم واتهامه لرسام تلك الألبومات بالاستشراق والاستهانة بالمرأة. لا يعرف كريم أني تعلمت بفضلها تحرير جسدي وتحريكه بالشكل المثير الذي لولاه ما انجذب إليَّ هكذا، وما استمرت زيجتنا ثلاثة عشر عامًا.

أحب كريم حبًا لا علاقة له باللهفة، ولا بالاكتمال في الآخر، ولا بمباهج وتحديات الحياة المشتركة. ذات مرة سألتني فريدة عن مقدار حبي لكريم. كنا نتناول زجاجة بيرة بعد العمل كعادتنا ليلة الأربعاء، في انتظار عودته لتورونتو. قالت إن الحب عن بعد ليس هينًا وإن ثمنه باهظ، انعدام التواصل والانفصال عاطفيًا عن الآخر، مثله مثل الاغتراب يفصلنا عن أوطاننا. ولما شككت في

رأيها بدليل استمرار زيجتنا لأعوام وسفري المتكرر للإسكندرية برغم أنها ليست وطني الأول، أجبرتني على تحديد ثلاثة أسباب لاستمرار الحب عن بعد. بعد تفكير، أجبتها بأني أحب كريم لأنه زوج ثابت ومستقر، ولأنه يرضيني جنسيًّا، ولأنه يترك لي حرية تقرير مصيري في الوظيفة وفي العلاقات الاجتماعية. ولأني أحب الإسكندرية لأنها وطن بديل لكندا، وطن أسطوري، قديم، أشعر به موغلًا في جيناتي الوراثية رغما عني.

ما لم أقله لفريدة هو أن حبي لكريم يختلف عن حبي لبسّام، وإن كنت أبحث مع كريم عن زيجة تشبه زيجة بسّام المستقرة. وربما أكون واهمة. من يدريني لو التقيت بسّام ثانية اليوم، هل كنت سأراه بعيون غير عيون الناس، أم كنت سأراه بعينَي زوجته التي حملّته مأساة اكتئابها المزمن حتى وفاتها؟

لم أقل أيضًا إن هيامي بالإسكندرية يختلف عن حبي لمونتريال، فقد لوحت شمسها وبحرها وهواؤها قبل عقود من مولدي بشرة أبي وبشرة جدتي التي لم أرها في حياتي سوى في الصور. الإسكندرية أورثتني تلك البشرة المشربة بسُمرة الشمس، وتلك العينين الزرقاوين كزرقة البحر. عشق المكان الآخر ما هو إلا بديل لإحباط الحاضر الماثل لأعيننا. الشمس في الخيال، الثلج في الواقع. بسّام في الخيال، كريم في الواقع. أكاد أسمع قهقهة فريدة ومحاولتها مداراة أسنانها الكبيرة تحت كفها المعقودة كالمحار على شفتيها. تكره السفسطة، ولا أقوى على محاجاتها فأصمت.

بعد مضي شهرين على زيارة بسّام للجامعة، التقينا كحبيبين في شقة صديق له في حي «روزمون» شرقي مونتريال. كان يهوى

تعريب الأسماء فأطلق عليه اسم «تل الورد». اتفقنا على اللقاء وكأنها مسألة اعتيادية، بلا مقدمات كثيرة من جانبه وبلا مقاومة تذكر من جانبي. كان قد بدأ يجتذبني بهيئته وحديثه خاصة وهو يعلق على المادة المنشورة في الجريدة التي يديرها أبي، ويتحدث عن طموحه للكتابة الصحفية الجادة في جرائد عربية وليس في جرائد المهجر. أعجبني أنه فارع الطول، شديد الأناقة، يهتم بتناسق الألوان ويرتدي دائما الملابس الملائمة لحالة الطقس. أعجبتني لحيته الكثيفة وشعره الغزير اللامع واستدارة شفتيه، خاصة السفلى، وهو يقبلني القبلة الأولى تحت شجرة صنوبر في غابة «مونرويال» أو الجبل الملكي. كان أيضًا يقرأ الشعر بلغة عربية ساحرة، ويدمن موسيقى الجاز والأفلام السوداء الأمريكية التي تدور أحداثها في الأربعينيات، ويحب أفلام «وودي آلن» و«فلليني» ويقتني معظمها على أشرطة دي في دي.

في اللقاء الأول في شقة تل الورد، مارسنا الجنس بمتعة فائقة وبحنان شديد حرص عليه ظنًّا منه أني عذراء. كان ممتنًّا لي، يستعذب كل لحظة ويطيلها قدر إمكانه، وكنت مبهورة الأنفاس أنظر إلى وجهه غير مصدقة. كيف نمت الصداقة لتصبح حبًّا وكيف صار الحب رغبة جارفة، وكيف استسلمنا لها بيسر وبلا تساؤلات؟

قرب المساء، غادرنا الشقة معا لنستقل المترو. نداري فرحتنا ونتحدث كأن شيئًا لم يكن، نتفق على موعد للمشي، نفكر في أنها المرة الأولى والأخيرة التي نذهب فيها إلى تل الورد. نستقل قطارين في اتجاهين متعاكسين، هو إلى بيته في ضاحية مرسييه الشرقية، وأنا إلى بيت أبي في منطقة ساحل الثلوج. في المساء، كتمت عن

أبي خبر لقائي ببسّام، وكنت قد أخبرته أننا نتجول أحيانًا في الجبل الملكي قريبًا من مقر الجريدة. قضينا الليلة نفسها في حديث طويل على الهاتف. بعد ذلك، أصبحت الشقة هي مكان لقائنا المفضل. وكأنما قررنا منذ اللقاء الأول ودونما اتفاق أن نكف عن المشي، وأن نشرع في التخفي عن الأعين. ثم، دون أن ندري، أخذنا ننسج الأعذار والأسرار التي ما لبثت أن أودت بالعلاقة لنهايتها المحتومة.

***

- زوجي عنده بنت صارت بنتي بطبيعة الحال. بس أنا الله ما رزقني ولاد. شو بيعرفني؟ يمكن انشغلت بحياتي وبسفراتي. من ست شهور بس صار عنّا حفيد كمان.

- إن شاء الله تفرحوا بيه.

- راح أعمل له فوتو سيشن عمره بحياته ما حينساه (تضحك). طلعت سنّونته اللي قدام، ولما بيتضحَّك بيصير وجهه مثل الوردة المفتّحة.

بعد برهة من الصمت، سألتني:

- ناوية تضلي في كيبك سيتي كتير؟

- لا، في الحقيقة ليلة واحدة.

- أنا راح ضل ثلاث ليالي، بعدين أرجع ع مطار ديترويت عن طريق تورونتو.

- سامعة إن فيه لبنانيين وسوريين كثير في ديربورن.

- إيه صحيح. بس أنا أصلًا من عايلة سورية من مونتريال، وزوجي كمان سوري من مونتريال.

سوري من مونتريال. أبتسم وأنا أعيد في ذهني جملة جارتي اللطيفة، وأشعر بالنوم يداعب عيوني وذكرى بسّام تلفني مثل سحابة بيضاء في سماء صافية. النوم يساعدني على تجنب الشعور بالغثيان. أضع ساقًا فوق ساق لإحكام وضعي على المقعد وأروح في نوم متقطع. أسمع صوت المحركات بين الفينة والأخرى، ثم يخفت الصوت وتخف مشاعر التوتر ويثقل رأسي فوق كتفي وأغفو لدقائق. أصحو وأنظر لجارتي فأجدها تطالع صورًا على هاتفها. يسرح بصري عبر النافذة، وأستدعي شعور النائم على سحابة. أغفو من جديد مديرة رأسي صوب الممر.

طوال فترة الشتاء لم نكف عن التواصل على الهاتف أو اللقاء في الشقة. نتكاتب يوميًا ونلتقي في الشقة مرة في الأسبوع. أحيانًا أختلس وقتًا لنشرب فنجان كابتشينو في كافتيريا قريبة من الجريدة، وأحيانًا أخرى يختلس وقتًا لنشرب زجاجة بيرة في بار قريب من بيتي. حتى بات اللقاء محدودًا بحدود الشقة، خاصة بعد أن سافر صديقه في مهمة إلى دمشق ولم يعد. نمت الصداقة حرة، مطمئنة، وبلا حدود ولا حواجز؛ ربما بسبب فارق السن، وربما لأن لكل منا نوعًا مختلفًا من الخبرة بالحب. كنت أتعامل معه بخبرة فتاة مندفعة وجسور وقعت في الغرام وطاش عقلها. أما هو فكانت لديه خبرة مختلفة، خبرة رجل سبق له الانجذاب لنساء أخريات، يجيد التعامل مع مشاعر الحب في طورها الوليد، ويتكهن بتطورها الطبيعي ونهايتها المتوقعة. كان حبًا عميقًا وحقيقيًا؛ ما دفعنا للمغامرة وتقبل

العواقب. يقول مدللًا على عمق حبه لي إنه بات يعرف كل شيء عني، وأعرف كل شيء عنه. يقول إني أكبر من سني، وإني أقرب إليه من نفسه. ويقول إني أجمل من أن يصدق وقوعي في غرامه.

باتت لقاءاتنا برغم ضيق الوقت، وأحاديثنا الليلية التي تتحدى المحاذير، مصدرًا من مصادر السعادة لكلينا. يقول إن زوجته لا تهتم بالحديث معه كثيرًا، مشغولة عنه بتدبير شئون البيت، مشغولة أيضًا بمقاومة نزوعها للحزن والانطواء، وتوسيع دائرة معارفها الاجتماعية. كنا نتحدث بلا توقف، قبل وبعد ممارسة الحب. يحدثني عن وودي آلن وولعه بموسيقى الجاز وعن فيلمه الأهم في رأيه؛ «تفكيك هاري». يحدثني عن لقاء فلليني ومَنارا في كتابهما المشترك «رحلة إلى تولوم». يبحث عنه في مكتبات مونتريال ويهديني نسخة بالإنجليزية أفرح بها، وتبدأ رحلة جديدة في حياتي مع القراءة. أكتشف ولع فلليني برسوم مَنارا وخياله السينمائي وأردد ما تعلمته على يد بسّام بين قبلتين أو في رحلتنا القصيرة من شقة تل الورد لمحطة المترو. أحيانًا، يحضر معه أسطوانة لفيلم من أفلام «آلن» الشهيرة؛ «زيليج»، «أزواج وزوجات»، «هَنا وأخواتها»، أو أفلام فلليني الأكثر تعقيدًا والتي لم أكن أطيق الفرجة عليها لفرط مسرحيتها؛ «ستيريكون»، «روما»، «كازانوفا». أشاهد أفلام «وودي آلن» باستمتاع وأعيدها إليه ونتذكر ما قيل أو حدث فيها ونحن معًا في الفراش. ربما كان يقصد أن يعلمني شيئًا يخص علاقتنا عبر الأفلام؛ فأبطالها عادة ما يقعون في الحب مرات، وعادة ما تكون حياتهم الزوجية مركبة تتخللها خيانات صغيرة واحتكاكات مصدرها خليط من الشغف والغيرة.

يخطر ببالي أني لم أثق بكريم بعد زواجنا، بل أفرطت أحيانًا في الغيرة عليه وفي مراقبة علاقته بأليشيا. ربما بسبب الأفلام التي داومت على مشاهدتها. وكأني في علاقتي ببسّام كحبيب أشبه أليشيا في علاقتها بكريم. مسألة معقدة. أصحو من غفوتي القصيرة وأهز رأسي لأنفي الأفكار الشائكة، وأسخر من التحليل الزائد وفي ذهني وجه فريدة صديقتي بالوكالة وهي تقول بعينين متسعتين: لا تكوني واعية بذاتك هكذا طول الوقت. لكني أعود وأفكر: في الحالتين، سعيت للحفاظ على كريم وعلى استقرارنا الأسري تمامًا كما سعى بسّام لرأب صدوع زواجه التعس. أليس قدرًا غريبًا ذلك الذي يدفعنا لتكرار حياة الآخرين، وكنا فيما سبق نحاكمهم وندينهم بسببها؟ تخرجني داينا من ذكرياتي، وتسأل وكأنها غير متأكدة من إجابتي:

- وأنتِ زوجك مصري؟

- آه، كريم مصري - كندي. أستاذ بجامعة وندسور.

- اسمه حلو زوجك! وأنا زوجي بيشتغل بشركة فورد موتورز، مدير فرع.

- جميل.

- شو بيقولوا بوزارة الصحة بخصوص الفيروس الجديد يلي جايلنا من الصين؟

- فيه تخبط شديد ومعلومات متضاربة. كندا في وضع جيد مقارنة بدول أخرى؛ إيطاليا وإسبانيا مثلًا.

- عنّا بأميركا الوضع سيئ كتير، بس ما حدا بيجرؤ يعلن الأرقام الحقيقية. حسيت كأنو الربيع جايب إلنا أخبار حزينة.

لن أستطيع طمأنتك يا داينا. اجتماعي اليوم مع الزملاء في كيبك سيحدد أشياء كثيرة؛ من بينها التنسيق بين موقف الحكومة الفدرالية ووزارات الصحة الإقليمية بشأن التعامل مع الفيروس والحملة التوعوية المزمع القيام بها في مقاطعتي كيبك وأونتاريو. أشيح بوجهي لتجنب الحديث مع جارتي في أمور الصحة؛ فالناس يداومون على سؤالي عن عملي تمامًا كما يحدث مع الأطباء. يتوقعون مني طمأنتهم بشأن الصحة العامة، وأحيانًا يطالبونني بالتعليق على تصريحات الوزارة فأمتنع وأتهرب من الرد.

***

أغمض عينيَّ وأتذكر ربيعًا آخر أقل حزنًا قضيت قسطًا منه بصحبة بسّام. كان الجليد قد بدأ في الذوبان مبكرًا عن موعده وارتفعت درجة الحرارة لتصل إلى عشر درجات فوق الصفر. أرسل لي بسّام رسالة على الهاتف يقول فيها: يوم كامل بين ذراعيك هو ما أتوق إليه الآن. وأجبته: وأنا أيضًا. لكن لا تعدني بشيء لا تستطيع تحقيقه.

بعد أيام، منحني على غير عادته يوم العطلة كاملًا. كان يعرف أني أسافر إلى «روان نورندا» لقضاء إجازة عيد الفصح مع خالي، وكانت زوجته قد رتبت لقضاء الويك إند مع ابنتهما وصديقة لها في ورشة للتدريب على اليوجا والتأمل للمبتدئين. اقترح بسّام أن نمضي يوم السبت في شقة تل الورد، وأن نتناول الطعام في مطعم بالحي نفسه.

ما إن تجاوزت عتبة الباب، حتى بادرني بالعناق والملاطفة. قبلني طويلًا وأنا أقف على أطراف أصابعي، ومارسنا الحب بشبق

وتأنٍّ على الأريكة ثم على السجادة. حين استرحنا على ظهورنا وضعت ساقي فوق بطنه كما يحب، وعَنّ لي أن أسأله عن أكثر شيء سيفتقده في غيابي.

أجاب بعد تردد: القرب منك.

لا أدري لماذا غمرني الفرح عند سماعي لتلك الجملة. قفزت من مكاني إلى جواره، وارتج ثدياي مثل عصفورين وأنا أجلس فوقه قائلة: كل السعادة والنعيم في القرب منك! هتف ضاحكًا: في حدا بعمرك بيتذكر عبد الوهاب؟ أسكتُّه بقبلة ثم أسلمته ثديي مثل أم ترضع وليدها بعد شبع. لحظة قرب لم تغب عن ذاكرتي إلى اليوم. أتذكرها وأبتسم. بعدها مارسنا الحب باستمتاع للمرة الثانية. يناديني بكل الأسماء التي أحبها، وأناديه وأدله وأدلل فيه، وكأني غائبة عن الوعي. ثم تتلاحق أنفاسي، فلا نصل معًا، أصل قبله وتهدأ حركتي وأنا أهوي بجسدي فوق جسده، ثم أعود لأحتضنه وأدفعه لاستكمال ما بدأنا.

فعلت جملة القرب منك مفعول السحر. وجاء رد فعل بسّام عذبًا صافيًا، خاليًا من التوتر الذي صاحب لقاءاتنا السابقة، حين كان يلملم أغراضه بسرعة ليعود للبيت في الموعد المتوقع، أو يضطر للرد على الهاتف لو اتصلت به زوجته أو ابنته في أمر عاجل.

بمرور الوقت أيقنت كم كنت أفتقد القرب منه، وكم كان القرب مستحيلًا. كانت أولوياته في الحياة تدور حول أشخاص بعينهم: زوجته (لا يريد الإساءة إليها)، ابنتهما الوحيدة (تحتاج إلى أبيها في سن المراهقة)، أصدقائه في العمل (مكبل بظروف العمل

وأمنيات الترقي)، معارفه من الجالية العربية والسورية (لا يلتقون إلا كأزواج). أدركت أن القرب الحقيقي لم يكن ممكنًا، لأني لست من ثوابت حياته ولا من أولوياته اليومية. كنا نتواعد فقط في أيام العمل نظرًا إلى استحالة اللقاء في الويك إند، وفي ساعات معلومة بين الثالثة والسادسة مساءً إلا لو تعذر الهروب من الجريدة قبل نهاية الدوام. تتفاوت مدة اللقاء بين ساعة وساعتين، مرة كل أسبوع أو كل أسبوعين وفقًا لظروف الأسرة والعمل والمسئوليات الاجتماعية الأخرى. نعوض الغياب بمراسلات متكررة يوميًا عبر الهاتف.

مكاني محفوظ ومتغير وفق الظروف، والحب واللهفة يخفتان أيضًا وفق الظروف. قريبة من القلب، قريبة عند الحاجة، وبشروط؛ أهمها ألا أهدد استقراره العائلي وألا أظهر في محيط عمله أو حياته الاجتماعية التي خلت من وجودي.

أدركت في ربيع ذلك العام أن البعد عنه في «روان نورندا» وغيابه عني في مونتريال أصبحا متشابهين. لا فرق بين أن أكون على بعد مئات الأميال من بيته، أو أن أكون على بعد خمس محطات مترو. انتبهت لأنه يقود الدفة بوهم أني من يختار، وأني من بيده الأمر والنهي بشأن علاقتنا. يقول إني حرة وهو مكبل. يقول إنه لم يفرض إرادته وظروفه ونمط حياته عليَّ، وإن العكس صحيح. يكرر أنه يحبني ويحترم قراري. نختلف حول معنى القرب ويتحول الحب لنثار أوقات مسروقة أعيشها على هامش حياته، كزهرة ملقاة على قارعة الطريق، تموت وتذبل في العشرين وتُنسى كأن لم تكن.

صارحت خالي بقصة الغرام دونما إفاضة في التفاصيل. أخبرته بأني أحب رجلًا متزوجًا، وبرغم أنه غير سعيد في زواجه

فإنه لا يرغب في الانفصال عن زوجته. كنا واقفين في الشرفة المطلة على الطريق؛ خالي يدخن كعادته وأنا ألتف بمعطفي الثقيل وأطرافي تكاد تتفتت من البرودة. الشمس تغمرنا بسخاء والصقيع يغلف الأشجار وروحي تستدفئ بذكرى بسّام.

أفلت مني الاعتراف كمحاولة لاستدعائه من مونتريال، تمنيت (وكنت أعلم أن الأمنية لن تتحقق) أن نزور خالي يومًا ما معًا، كحبيبين. أنصت خالي متفكرًا ثم كف عن التدخين وقال: لا أمل في تلك العلاقة يا نور! ثقي بي. ستظلين بعيدة وغريبة. لن أندهش لو استمر صديقك في الاستهانة بك وبرغباتك لصالح استقراره مع زوجته. ثم كف عن الكلام وسرح ببصره بعيدًا. لم أعترض. خالي الحبيب يعرف. وأنا أعرف. وبسّام يعرف. بعد برهة، رجوت خالي ألا يخبر أبي بأمر تلك العلاقة. خفت على أبي من الصدمة، وعلى بسّام من عار الخيانة. وإذا بالهاتف يرن، ويأتي صوت أبي حنونًا كعادته، يسأل عن أحوالي. لم أعرف بماذا أجيبه. سؤاله البسيط: كيف حالك؟ جعلني أجهش بالبكاء. ضمني خالي لصدره وعرفت لحظتها أن النهاية قد بدأت.

مرت أشهر في محاولة من جانبي للتحايل على البعد وتجاوز شروط العلاقة السرية وتعقيداتها الكثيرة. ثم بدأ العذاب. أصبح لقاؤنا الأسبوعي غير كافٍ، وبتُّ أغار من الوقت الذي يقضيه مع زوجته وابنته أو مع أصدقائه ومعارفه. لا أفهم كيف يحبني، وكيف يقبل بالابتعاد عني. يقول إنه يحب زوجته، ويقول إنه يحبني أيضًا وأصدقه حين نلتقي، ثم أعود لتكذيبه حين يختفي. أتخلف أحيانًا عن لقائنا في تل الورد، متحججة بمشاعر الحزن وحلول الذكرى

الأولى لوفاة أمي تارة، أو بالغضب من نمط حياته وإصراره على استبعادي منها تارة أخرى. وفي كل مرة نعود للشقة، يعتذر صادقًا ويستميلني فأستسلم لحضنه بلا مقاومة، تخايلني صور فاتنات مَنارا وتستدعي في ذهني خيالات شبقية كنت أخجل أن أعبر عنها بالكلام فأكتفي بالتعبير عنها بحواسي ولهفتي واندفاعي لمعانقته.

لم ينتهِ الصيف إلا وكنت قد تحصلت على وظيفة مؤقتة في جمعية أهلية تقدم ضمن خدماتها الرعاية النفسية للمهاجرين الجدد. لاحت لي من جديد إمكانات الاستقرار، وتبدلت مع الوظيفة نظرتي لنفسي وللمستقبل. أنهيت فترة التدريب وأنا على كف عفريت الحب، كأني الجنية في مسلسل «أحلم بجيني»، ألتصق بحبيبي وأدبر له المقالب والحيل كي أستبقيه إلى جواري، ويداوم هو على الإفلات والتنصل من المسئولية.

وربما لم أكن ساحرة بما يكفي. ربما لم أتمتع بقوى جيني الخارقة؛ لذلك فشلت في الاحتفاظ به أكثر من بضع ساعات كل أسبوع. يعذبني غيابه فيسارع بتأكيد حبه لي وهو مستمر في النأي عني. يؤجل اتخاذ أي قرار بشأن علاقتنا ويقول إن الأمر كله بيدي. يقول إنه ينتظر الترقي، ينتظر أن تكبر ابنته، ينتظر أن تشفى زوجته. ويمر الوقت ثقيلًا في دائرة الانتظار المفرغة. دوامة من التوقعات وفشل متكرر في تحقق الأماني. كنت كمن يقف وحيدًا على رصيف محطة قطار، في منطقة موحشة، وكان بسّام كمن يستقل قطارًا بطيئًا يتوقف في كل المحطات وحين يصل إلى المحطة التي أنتظر عندها يتجاوزها دون توقف.

هكذا، وعلى الرغم من قرب محل عملي من مقر الجريدة، تباعدت لقاءاتنا. استشعر خطرًا من حديثي عن عذاب البعد، وبدأ

في الانسحاب بهدوء وبلا إفصاح. وكأنه أراد للحب وللصداقة أن يموتا معًا، رويدًا رويدًا. كان يعرف النهاية منذ البداية. يعرف العذاب الذي ينتظرني، ويربت على كتفي بحنان وهو عازم على ما هو عازم عليه. ثم أخذ يردد في محادثاتنا أن لقاءنا ما هو إلا وقت مسروق بين وقتين. يقول إن الانجذاب واللهفة شعوران كاذبان، يخففان من مرارة الخيانة لا أكثر، وإني سأجد بالتأكيد حبًّا أكبر وأعمق في المستقبل القريب. وعندها سأتزوج، وسيكون زوجي المفترض هذا هو الرجل المناسب بلا شك.

عقب رجوعي من عطلة قصيرة قضيتها مع أصدقاء على شاطئ بحيرة في منطقة «اللورانتيد» ذات التلال الخلابة، أعلن أبي قرار العودة إلى مصر عودةً نهائية. كان يفكر في العودة منذ زمن، ويكرر أنه لم يعد مرتبطًا بمونتريال منذ وفاة أمي. لم تكن مفاجأة أن يختار العودة لمصر في هذا التوقيت، أعرف أنه يريد غلق باب الهجرة، يريد أن يبدأ حياة جديدة بعد الخمسين. خيرني بين الرحيل معه أو البقاء في مونتريال، فاخترت البقاء متعللة بأني سعيدة بالوظيفة وأن الوقت قد حان لتكون لي حياة مستقلة. في الحقيقة، كنت قلقة. كنت أخاف أن يخيم شبح الوحدة على حياتي وأنا بعد في مقتبل العمر. أعرف أني أرفض الوحدة مهما كانت الأسباب، ولكني أرى نفسي أغوص فيها بمرور الوقت.

لم ألح على بسّام ليمنحني وقتًا واهتمامًا كبيرين، شرعت في البحث عن صداقات بديلة، عن حب بديل وعلاقات أخرى مستقرة، ناضجة. في تلك الأثناء، تواصلنا بشكل متقطع عبر الهاتف. راقبت أحاديثه معي وردود أفعاله لقراراتي بعين مختلفة، راقبت نمط حياته

وحاولت تقليده حتى تساوينا في طريقة التفكير وأشكال التمني.
نعم، أمر غريب ما حدث. بتُّ أشبه بسّام. يحبني وينشغل عني زمنًا. أفكر فيه وأختفي. يعود فجأة متمنيًا أن يضمني إلى صدره كما كنا في الماضي. أتمنى الشيء نفسه لكني أعتذر لضيق الوقت. نكتفي بلقاء عابر في مقهى، وأفرح وهو يحكي عن يومه في العمل كأننا كنا معًا بالأمس فقط. ثم نفترق بلا وعود وبلا رغبة في لقاء قريب.

ثم حدثت القطيعة في سبتمبر ٢٠٠١. أذكر التاريخ جيدًا. علمت من أبي أن بسّام ترك العمل بالجريدة وينوي السفر إلى أمريكا بصحبة زوجته وابنته. هو لم يخبرني، احتفل بالسفر مع عائلته وأصدقائه المقربين، ونسيني. كانت علاقتنا قد أتمت عامًا وبضعة أشهر، من بداية السنة الأخيرة بالجامعة وحتى بداية السنة الأولى في عملي بالجمعية. في سبتمبر المشئوم، انتهت حياتي كما عرفتها وانتهى الغرام كما بدأ، هادئًا مترويًا من جانبه، عاصفًا حزينًا من جانبي. ستة أشهر من الوله الشديد به، ستة أشهر من العذاب الدائم في غيابه. تلتها سنة أو يزيد من الاستشفاء، سافر أثناءها لأمريكا وانقطعت أنا عن مهاتفته، حتى تسربت مغامرة الحب المسروق من بين أصابعنا وانتهت إلى زوال.

كان بسّام محقًّا إلى حد بعيد في تصور مستقبلي وأنا على أعتاب حياة مهنية مستقلة. تزوجت الرجل المناسب بلا شك، وأحببته حبًّا هادئًا استمر لسنوات، حبًّا عاريًا من اللهفة. ثم نما الحب بفضل وجود الولدين اللذين عوضاني عن غياب أبيهما بحضورهما المبهج. انتظمت حياتي بفضل العمل وبفضلهما. لم أفتقد كريم حين وافق على العمل في وندسور. ولم أشعر بثقل الانتظار أو

لهفة الحنين. رتبت الحياة معه بشكل منهجي لضمان الاستمرار، وأحببته مع الزمن ومع تأكد امتلاكي له وبدعم من عقلية عملية تطورت بداخلي مع الوقت.

***

- ع فكرة، عِنّا أصحاب كانوا عايشين بوندسور وهلق مستقرين بأميركا. لينا عقاد رفيقتي وزوجها.

- احتمال كريم يعرفها.

- إيه... لينا كانت بجامعة وندسور قبل، بعدين هلق صارت بجامعة ميتشجن آن أربر. بس أحيانًا بتروح وندسور بسبب الشغل. احتمال تتقاعد السنة الجاية. شو بيعرفني؟ كلياتنا حاسين بإرهاق رغم إنو لساتنا شباب (تبتسم)

- صحيح.

- كمان بنتها للينا رفيقة بنته لبسّام، زوجي...

هل سمعت جيدًا؟ هل رن اسم بسّام في أذني فعلًا؟ ألم يأتِ من رأسي ومن سيل الذكريات الذي انجرفت معه على غير هدى؟ لقد نطقت جارتي بالاسم على ما أظن. استعدت بسرعة البرق جملًا من ثرثرتنا القصيرة. متزوجة بسوري من مونتريال، له ابنة وحيدة، وتقيم في ديربورن. طبعا هناك آلاف السوريين بالمدينة وهناك آلاف المتزوجات برجل سبق له الزواج ولديه ابنة. لكن كيف غابت عني التفاصيل منذ بداية الحديث؟ وهل جفت الذكرى إلى هذا الحد حتى إني نسيت سفره لديربورن مع زوجته وابنته؟

- اسمها صافية. هاي صورتها مع لينا، بلكي تتذكريها؟

- صافية هَنا الحايك؟

- إيه (تلتفت لتنظر إليَّ ويرتفع حاجباها في تعجب). بس أبوها بيناديها هَنا. تعرفي بسّام لكان؟!

يطن الاسم للمرة الثانية في الفراغ الفاصل بين مقعدينا ويحلق كسحابة تؤذن بالمطر. لكن الطائرة ترتج فجأة فينقطع الحديث. ليس بسّام الذي أعرفه. ربما كان حايك آخر، من مدينة أخرى غير حلب. مئات السوريين ينتمون لعائلة الحايك، أو لعائلات تحمل الاسم الشهير نفسه. بل هو بسّام، وهي هَنا، ومن تلك الغريبة إذن؟ زوجة ثانية لبسّام؟ ماذا حدث يا ترى؟ وكيف انقطعت أخباره كل هذا الوقت؟ تعودت اختفاءه وظهوره في الفترة التي تلت فتور العلاقة بيننا. أما اختفاؤه التام حتى عن منصات الميديا المعتادة فقد كان مثيرًا للتساؤل، بل غريبًا على رجل عمل لسنوات في مجال الصحافة.

كان زميل والدي في الجريدة أيام مونتريال (بدا لي التعبير غريبًا. متى انتهت تلك الأيام؟)

- بس انتِ من تورونتو ما هيك؟

- أصلًا من مونتريال.

- لكن اسمك نورهان شو؟

- نورهان عبد الحميد. كان والدي رئيس بسّام في الجريدة.

- يا الله! عالم صغير عن جد. شو ها الصدفة الحلوة؟ حكى لي عن الجريدة زمان، وسامعة عن الوالد طبعًا. بس ولا ممكن أتصور أبدًا ألتقي بحدا من معارف بسّام من هاي الفترة. كتير بيشتاق لمونتريال.

تستمر الطائرة في الارتجاج فنحكم الأحزمة حول خصرنا. حبات عرق تنبت على جبيني ويطفر بعضها في الممر الفاصل بين نهديّ. لن يكون بوسعي أن أخفيها، ولا أن أقاوم الدوار المفاجئ الذي يسبق الهبوط. تستمر دهشة جارتي وتبتسم كأن ما يحدث للطائرة لا يعنيها. تنقر بسرعة على الموبايل، تريد أن تريني صورة زفاف هَنا. أنظر نحوها وقد هالني أن أراها قريبة إلى هذا الحد برغم المقعد الشاغر بيننا. هي ناحية الممر، وأنا في المقعد الملاصق للنافذة أعاني من الدوار الذي يزيده تعقيدًا خوفي من الأماكن المغلقة.

زوجة بسّام الحايك. تزوج إذن للمرة الثانية، توقف في المحطة التي كنت أقف عندها ولم يجدني في انتظاره. يا الله! هل مرت حقًّا كل تلك السنين؟ وها هي زوجة بسّام تنظر إليَّ وأنظر إليها، الزوجة الثانية للرجل الوحيد الذي أحببته فمنح حياته لامرأتين غيري. ينتقل بصري لشاشة الموبايل وإصبع صاحبته تمر بدربة ومهارة على أرشيف الصور.

- شوفي شو حلو فستان صافية؟

تلتفت نحوي وتجدني مغمضة العينين وقد ظهرت عليَّ آيات الإعياء.

- سوري مدام. بِكي شي؟

يدها الرطبة تربت على يدي. لا أجيب. أسمعها تفك حزام المقعد وتهم من مكانها وتنادي المضيفة. حدث هذا في أقل من دقيقة. ثم أخرجتْ بروشور شركة الطيران الكندية من حافظة المقعد الأمامي، وراحتْ تحركه قريبًا من وجهي. جاءت المضيفة وذهبت. عادت بزجاجة مياه صغيرة. ونادتني. أجبتها أني بخير. مجرد غثيان سببه ارتجاج الطائرة. حظ عثر، خاصة أني أكره أن يراني الآخرون على هذه الحال. ولديَّ مائة سؤال لتلك السيدة الأنيقة؛ زوجة بسّام. كيف يمكنني الآن أن أسأل وأن أتوقع الرد؟ وهل يتسع الوقت؟

يتحرك الهواء قريبًا من وجهي فأغلق عينيَّ وأفتحهما. أتنفس بعمق وأقول أخيرًا: نوبة شديدة. آسفة. أشكرك. تبتسم في وجهي وترد: ولا يهمك. لوهلة نسيتُ اسمها. ما اسمها؟ أحاول أن أتذكره لأشكرها بالاسم. كل ما أتذكره الآن اسم بسّام، ووجهه الضاحك، نظرته الناعسة. أتذكر أيضًا وجه ابنته الصبية. كان اسمها صافية لكنه يصر على أن يناديها هَنا، بلكنة أمريكية. رفض الاسم الذي منحته إياها أمها يوم ولادتها. أتذكر وجه هَنا وروحها الوثابة. أشبه بروح أبيها. كانت تزورنا أحيانًا مع والديها. أرفض اللعب معها. أنا في مقتبل الشباب وهي مجرد طفلة في العاشرة تصر على مصادقتي. الآن تزوجت ولديها صبي. تزوجت هَنا وهذا عادي. وتزوج بسّام وهذا غريب. بالطبع تزوج، كيف غاب عن بالي هذا الاحتمال؟ ظل بجوار زوجته حتى لحظاتها الأخيرة. ماتت قبل أن تكمل الثالثة والخمسين. قيل إنها ماتت إثر جرعة زائدة من أدوية الاكتئاب. أرسلت رسالة تعزية ورَد عليها بأدب زائد. أدب المديرين الرسميين في أمريكا. وصلني الخبر وأنا في أشهر الحمل الأخيرة. بعدها ولد مالك في عام ٢٠٠٨. كيف نسيت؟ وكيف تذكرت؟

تأتي المضيفة بكيس قمامة ورقي وتمده لي. في يدها زجاجة كحول طبي برائحة اللافندر تمررها تحت أنفي. تؤكد أننا في الطريق للهبوط. مرت ساعة وربع ولم تبقَ سوى دقائق ونهبط في كيبك. جارتي تبتسم ابتسامة تشجيع. أغمض عينيَّ ثانية حتى لا أرى المضيفة وهي تهتز مع اهتزاز الطائرة في سلسلة لا نهائية من المطبات الهوائية.

- بيكون حدا ناطرك بالمطار شي؟

أشير بالنفي.

- ولا يهمك. صافية بتكون هونيك. لو بدك بنوصلك ع الأوتيل.

صافية هَنا. ماتت أمها. تزوجت وأنجبت. ولماذا تقيم في كيبك؟ ولماذا شاءت المصادفة أن ألتقي بزوجة بسّام الثانية؛ تلك التي حلت محلي، وأن أضطر لملاقاة ابنته وتذكيرها بنفسي؟ ولماذا يعمل بسّام بشركة سيارات؟ هل تخلى عن طموح الكتابة للصحافة؟ ألتفت لأتفحص وجه داينا وهي مشغولة بالنظر في مرآة صغيرة أخرجتها من حقيبتها. جميلة، بروفيل الوجه ينم عن راحة وهناء صاحبته، تجاعيد بسيطة جدًّا حول العينين وابتسامة ساحرة.

بعد دقائق، هبطت الطائرة هبوطًا مدويًا مرتجًّا على أرض المطار. قالت جارتي: الحمد لله على السلامة وأجبتها بتحية من الرأس وقد سرى الخدر في أوصالي. لديَّ مائة سؤال وسؤال. هل التقيا في ديربورن؟ ومتى؟ بعد وفاة زوجته، أم قبل ذلك؟ أتذكر تلك الليلة البعيدة، عندما أشار أبي لرحيل بسّام إلى أمريكا وكأنه تحصيل حاصل. تمامًا مثل قراره بالعودة النهائية لمصر. كنا نشاهد

برنامج المذيع والكوميديان «كونان أوبريان» على التلفزيون. وكان ضيف الحلقة الممثل الأفرو-أمريكي الكوميدي الشهير «جيمي فوكس». أبي يتابع البرنامج باهتمام ويقهقه مع كل نكتة، وأنا منشغلة بالحديث مع صديقة على الهاتف نرتب لقضاء أسبوع في بوسطن لزيارة أقارب لها هناك.

كانت ليلة الثلاثاء الرابع من سبتمبر ٢٠٠١، وكانت المرة الأولى التي تصيبني فيها نوبة ذعر. أخبرني أبي بنبأ سفر بسّام وكأنه خبر عابر. أنهيت الحديث مع صديقتي بذهن مشتت وانسحبت إلى غرفتي. في تلك الليلة، عزمت على أن أغلق باب الاجتهاد في الحب. وأن أعثر على الرجل المناسب للزواج بغض النظر عن المشاعر والرغبات. بحسبة علمية بسيطة، أدركت أني الخاسرة في العشق. كتبت رسالة على الإيميل لبسّام ولم أرسلها. انتظرت أن يخبرني بنفسه بنبأ سفره المفاجئ. نمت واستيقظت وقد ضاقت أنفاسي وبدأت في البكاء وأنا أدور في الغرفة. ثم قضيت الأسبوع التالي في الفراش، منهكة، أنام وأصحو للأكل فقط، وأبي يعتقد أن سفره هو السبب في شقائي. مع نهاية الأسبوع، انتهى كل شيء. استيقظت وفتشت في قلبي عن موضع الألم فلم أجده. انطفأت مشاعر الحب واللهفة وعذابات الغياب، وحل محلها غضب مكتوم ولوم وعتاب، لنفسي قبل كل شيء، وله لأنه كان يعرف النهاية منذ البداية. ثم قرار حاسم لم يتغير منذ تلك اللحظة وحتى اليوم، أن أكتفي بالزواج عن الحب. أن أجرب وصفة بسّام في نموذج الحياة الزوجية السعيدة.

في اللحظة التي أفقت فيها على حقيقة مشاعري الجديدة، حدثت كارثة تفجير برجي التجارة العالمية في نيويورك. نقلتني

الأحداث بفعل السحر وبهول الأسى الكوني لمنطقة أخرى خارج ذاتي. انغمست في العمل بشكل كبير وعن عمد، اشتركت في مجموعات صغيرة لمواجهة أخطار العنصرية ضد العرب، ثم بعد رحيل أبي إلى الإسكندرية، شرعت في البحث عن شقة صغيرة قريبة من محل عملي، وحثني خالي على التفكير في مستقبلي كشابة في مقتبل العمر مهددة بالتعاسة بسبب خطأ لم تتعمد ارتكابه.

بعد ذلك بنحو خمس سنوات، كَففتُ عن اللهاث وراء أحلام العمل التطوعي الصبيانية وسيلان المشاعر النزقة، وقررت أن أعيد بناء نفسي من جديد. سجلت في برنامج للماجستير في مجال الصحة العامة بجامعة مونتريال، وأقبلت على الدراسة المسائية لمدة ثلاثة أعوام لحين حصولي على الدرجة العلمية. داومت على الذهاب إلى الجيم، وعلى المشي ساعة يوميًا مهما كانت ظروف الطقس. التقيت بكريم في واحدة من جولاتي الصباحية، وتزوجنا في غضون أشهر قلائل من هذا اللقاء. في تلك الآونة، كان خالي هو الوحيد القادر على فهم ما أعانيه، وعلى إسداء النصح بشكل رقيق، وبلا إصرار. وهو أول من استشرت في مسألة زواجي. راقت لي فكرة الارتباط بشاب مهاجر مصري حين راقت له، وقد أعجبه كريم كثيرًا لثقافته الواسعة وطموحه العلمي.

كانت حقبة مؤرقة وحزينة من حياتي. بدأت بوفاة أمي، وانتهت بلقائي بكريم وزواجي به. لم تخلف برغم مرور كل تلك السنوات سوى ذكريات ضبابية عن لحظات مختطفة من السعادة والتحقق، تقابلها ساعات طويلة من الانتظار والتوهة والإخفاق.

الغريب في الأمر أنني صرت قرينًا لزوجة بسّام، لا أعاني من الاكتئاب المزمن مثلها، لكني متمسكة بدوري كزوجة وأم وحبيبة،

متمسكة بالاستمرار مع زوج يحترم واجباته تجاه الأسرة ويشبه بسّام في رقته واستسلامه للحياة بنمطيتها وعاديتها. تزوجت رجلًا غائبًا، وصرت كثيرة الغياب أنا أيضًا بحكم عملي في الوزارة وإصراري على تحقيق طموحاتي في الترقي والاستقرار المادي. أردت التوفيق بين الحيوات المختلفة التي كان بسّام وكريم يحرصان عليها؛ الأسرة، العمل، الأصدقاء المشتركين. نجحت في بلوغ الأهداف العملية، وفشلت في الشغف بكريم.

بعد انتقالنا للعيش في تورونتو وحصول كريم على وظيفة ثابتة في جامعة وندسور، أصبح كلٌّ منا واعيًا بموقعه في حياة الآخر. فضل كريم الانتماء لقبائل ثلاث خارج أسرتنا الصغيرة: عائلته في مصر ومونتريال، جامعة مونتريال حيث تلقى تعليمه، جامعة وندسور التي ضمنت له الاستقرار الوظيفي والمرتبة العلمية والمرتب المجزي. أما أنا فكنت دخيلة على تلك القبائل. لم يكن لديَّ ما أنتمي إليه سوى ربما أماكن بعينها في حي ساحل الثلوج بمونتريال وفي سبورتنج بالإسكندرية، ذكرياتي مع أمي، وارتباطي العاطفي بمن تبقى من العائلتين؛ خالي من ناحية وأبي وأخي عمر من ناحية أخرى. ثم ذكريات حبي الأول، وما تعلمته عن نفسي وعن رغباتي في تلك السنة البعيدة التي قضيتها في أحضان بسّام الحايك.

***

توقفت الطائرة على الممر، وجاء صوت الطيار حادًّا رفيعًا على الميكروفون يطلب من المسافرين الالتزام بالمقاعد لحين وصول الطائرة لبوابة الهبوط. أداوم على التهوية والتنفس بعمق. أخشى أن

يزداد الأمر سوءًا في السيارة التي ستقلني لمبنى الوزارة؛ فالخدر والتنميل ما زالا يثقلان أطرافي. لكني أتنفس بشكل أفضل وأبتسم لجارتي لطمأنتها.

- صافية حتفرح كتير بس تشوفك!

- مش عارفة. يا رب تفتكرني.

- أكيد ولو. خليني فرجيكي صورة قريبة لوجهها.

على شاشة الهاتف، يطالعني وجه امرأة شابة حلوة الملامح لا تشبه هَنا الطفلة في شيء، لكني أتعرف عليها. لها عينا بسّام الناعستان وشفتاه وابتسامته الودود. ترتدي ثوب عرس من الساتان الأبيض مزينًا بأزهار ملونة وردية وخضراء وتضع إكليلًا من الورد على رأسها بديلًا عن الطرحة. تمر داينا بإصبعها على الشاشة فتتحرك الصورة وتترك مكانًا لصورة هَنا مع أبيها وزوجة أبيها يوم العرس. لم يتغير بسّام كثيرًا. شابَ شعره الغزير، تغيرت نظارته الطبية، تكور بطنه قليلًا تحت السموكنج، لكن الفرحة كانت تطل من عينيه وهو ينظر للكاميرا ويبتسم على استحياء. أما داينا فكانت ترتدي ثوبًا أخضر يتناسق مع رباط عنق بسّام؛ ثوبًا أنيقًا من الشيفون مكشوف الصدر، وتمسك بيدها كاميرا احترافية تحاول أن تداريها في ثنايا الثوب الطويل. أخذت الهاتف بعد استئذانها وجربت تكبير الصورة. ورحت أهز رأسي وأبتسم.

- بسام ما اتغيرش كتير. ولا هَنا (أكذب). أما فستانك... «روعة».

- حبيبتي والله. هاي من ذوقك. يلّا ناخد سيلفي أنا وياكي. بس نوصل راح اكتب لبسّام أكيد وأبعتله الصورة.

في بهو المطار، تقف هَنا في انتظارنا. لم تتعرف عليَّ، لكن حديث داينا ذكرها بي. احتضنتني بقوة. كيفه عمو عبد الحميد؟ أجبت بأنه في الإسكندرية ولديه ابن اسمه عمر. نيالك! طول عمري باحلم يكون إلي أخ. تتحدث هَنا كأننا من جيل واحد، ما زالت تقارن نفسها بي. أشعر بارتياح لأني على الأرض، وأني بصحبة معارف من زمن فات. تعود إليَّ حيويتي تدريجيًّا ونحن في انتظار وصول حقيبة داينا على السير المتحرك. أحمل عنها ثوب الفرح ريثما تضع حقيبتها على الترولّلي، وأتبعهما خارج المطار. تصر داينا على اصطحابي للفندق، وأعتذر بأن موعد لقائي في مبنى الوزارة قد حان. سأذهب إلى الفندق لاحقًا.

نتبادل أنا وهَنا أرقام الهاتف النقال، وتدعوني لعشاء متأخر في بار داخل أسوار المدينة القديمة. أوافق من باب الفضول. تفتح داينا صفحتها على الفيسبوك وتقول إنها سترسل لي طلب صداقة. أمليها اسمي Nourhan Abed (بدون الحميد). تفتح الصفحة فتطالعها صورة البروفايل التي تجمعني بمالك وآدم. لا تسأل عن كريم. ستتعرف عليه فيما بعد. ترسل طلب الصداقة ثم تريني صفحتها. اسمها Dyna Sleeman وصورتها تضمها وبسّام. تضيف ضاحكة: هو مقاطع فيسبوك وإنستجرام، بس هلق كل صورنا صايرة على الفيسبوك.

في سيارة التاكسي التي تقلني لمبنى الوزارة، أقبل طلب الصداقة الذي أرسلته داينا وأروح أتصفح ألبومات الصور. بعض الألبومات خصصتها لتحقيقاتها الصحفية؛ من بينها زيارتها لمخيم للاجئين السوريين في حلب في نهاية التسعينيات، وسلسلة من الصور منشورة تحت عنوان «قرمزي» معظمها عن الدمار الذي

لحق بمدينة حمص السورية. وبعضها الآخر للأسرة، هي مع هَنا في مراحل عمرية مختلفة، هي مع بسّام في بيتهما بديربورن وفي سفرات داخل وخارج أمريكا وكندا.

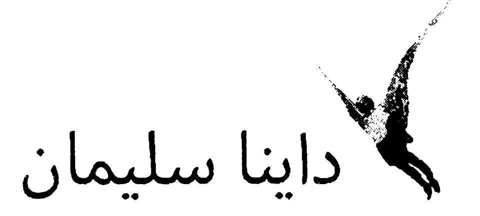
طالعتني صورة عيد زواجهما الأخير مصحوبة بتعليق من جملتين: «مضت عشرون سنة كالحلم. عشرون سنة ونحن ننظر معا لعدسة الكاميرا هكذا». في الصورة كانا يرتديان ثيابًا صيفية مرحة ويقفان على شاطئ تظلله أشجار النخيل، يشبه شواطئ جزر الكاريبي. عشرون عامًا يا بسّام. هل تعارفتما في مونتريال، أم في أثناء سفرك للبحث عن عمل في ديترويت؟ هل التقيتما في الوقت نفسه الذي وقعت أنا في غرامك، أم بعد ذلك؟ أعيد حساب التاريخ، ويتأكد لي أنهما التقيا قبل أحداث سبتمبر ٢٠٠١، أي قبل انفصالنا بشكل نهائي. أبتسم وأهز رأسي باستغراب. تعارفا ونحن معًا إذن. ولكن متى حدث الغرام؟ وكيف حدث؟ بالطبع لم يتزوجا منذ عشرين عامًا، فقد كانت كارول ما زالت على قيد الحياة. لكنهما صديقان منذ ذلك التاريخ بلا شك. معًا ومعي دون أن أدري. يقتلني الفضول. صورهما القديمة على فيسبوك لا تكشف شيئًا عن تلك المرحلة.

أراقب حركة الأشجار المتعاقبة من نافذة التاكسي وأنتبه لشعور بالطمأنينة يتسرب إلى قلبي. كما لو أن عذابات الماضي البعيد لم تعد تخلّف شعورًا بالأسى. أتذكر التفاصيل بالطبع، لكنها تخلو من الحزن. لم تعد تترك غصة في الحلق وانقباضًا في المعدة كما كان يحدث في الماضي. أفتش بداخلي فلا أجد سوى ذكرى لحظات الفرح، مشاعر الحب الوليد واكتشاف أسرار الولع برجل مراوغ صعب المنال، لمسات وهمسات واهتزازات الجسد،

ضحكاتنا ورسائلنا اليومية على الهاتف، ثم اختفاء الحب تدريجيًا وصولًا للحظة الراهنة، وفيها ما فيها من تعجب واندهاش مما آلت إليه حياة كل منا.

أفتح صفحتي على الفيسبوك وأتخيل داينا وهي تحكي لبسّام عن لقائنا. أرى صورتي بعينيه، دهشته، ارتباكه، ثبات مآقيه وهو يحاول أن يداري انفعاله. ربما شاهد بعض الصور وتابع أخباري عن بعد. أتمنى أن يكون قد فعل. أشعر بوخزة في القلب وأنا أرى صورتنا معا أنا وداينا على صفحتها. هل نتشابه إلى هذا الحد لأننا أحببنا الرجل نفسه؟ هي أيضًا كانت تنتظر على المحطة. هي أيضًا عانت شيئًا شبيهًا بمعاناتي. لكنها انتظرت وفاة زوجته لتحصل عليه خالصًا لنفسها. كانت أكثر صبرًا مني، أكثر ثباتًا وتمسكًا بحقها في الحب. ترى كيف كانت ستكون حياتي لو أن بسّام ترك زوجته لأجلي؟ سؤال أحمق. حياة بدون مالك وآدم حبيبي ليست حياة، أو هي غير قابلة للتصور. أغلق الهاتف وأخرج حقيبة الميك آب. أعيد إصلاح ما أفسدته الرحلة، وأرتب في ذهني تفاصيل لقاء العمل مع زملائيٍ الكيبكيين. ثم أغوص في مقعدي متمنية يومَ عملٍ ناجحًا وسهرةً مثيرة بصحبة داينا سليمان وهَنا الحايك وحفيد بسّامٍ الصغير وعودةً سالمة لتورونتو في صباح اليوم التالي.




داينا سليمان

سيدة في الأربعين، شعرها يتدرج ويلتف لأعلى على طراز تسريحات الثمانينيات. وجهها الشمعي تغطيه المساحيق. سرحانة، تنظر للهاتف في يدها اليمنى وبنصرها تكاد تلمس الشاشة لكنها لا تفعل. تظل على هذه الحال خمس دقائق. ثم تتنهد وتضع الهاتف في جيب خارجي بحقيبة يد مكتظة. رجل خط الشيب رأسه، أنيق، لا يستطيع الجلوس طويلًا. يقوم كل خمس دقائق ويتجول في المقهى المواجه لبوابة الإقلاع تاركًا حقيبته بجوار المقعد. يعود ليجلس ويضع ساقًا على ساق. يصل رجل آخر في نفس العمر تقريبًا يجلس غير بعيد عنه، يخرج كتابًا من حقيبته ويشرع في القراءة. فجأة يسأل الرجلُ الأول صاحبَ الكتاب عن موعد إقلاع الطائرة. ثم يدور حوار يبدو كأنه حوار بين صديقين تربط بينهما علاقة منذ الطفولة. يقول الأول: ٦٩ سنة، شوية في ديترويت وشوية في مصر. يسأل الآخر سؤالًا بصوت خفيض فيجيب الأول: بقيت جد من زمان. الدنيا عدت. قارئ الكتاب طبيب. لم يتزوج وليس لديه أبناء. يغادر الطبيب المقهى بعد قليل، تتابعه نظرات الجد وابتسامته الراضية. سيدة محجبة يسقط من يدها قلم. يسارع رجل جالس على الجهة المقابلة ليلتقطه ويسلمه لها. لا تشكره. السيدة سمينة ترتدي رداءً أسود متعدد الطبقات يعوق حركتها. تجلس على مقربة منها

شابة حلوة، شعرها مهوش وحقائبها ملونة، ترتدي ثوبًا فضفاضًا من الكتان الطبيعي وإيشاربًا طويلًا يلتف عدة مرات حول رقبتها وينسدل حتى منتصف الثوب. تتحدث بلكنة مصرية في الموبايل. شاب في مقتبل العمر شعره مجعد طويل يضع سماعات خضراء فوسفورية حول رقبته، ذقنه وأنفه يصنعان قوسًا. هيئته وهو يجلس وراء السيدة المحجبة تجعل إمكانية الحوار بينهما مستحيلة.

تدخل مذيعة عربية مشهورة خبا نجمها منذ سنوات. لا أتذكر اسمها، كما أن أحدًا لا يتعرف عليها بلا مكياج. تجلس بالقرب مني، تشاركني دكة خشبية طويلة تتوزع أمامها موائد لفرد أو فردين. تخرج على الفور زجاجة مطهر من حقيبتها وتشرع في بخ المطهر على المائدة وعلى يديها. تعبر للداخل سيدة صومالية تتحدث بالعربية مع فتاة بصحبتها. تقول إن الصوماليين ليسوا عربًا حتى لو كانت الصومال دولة عربية. الصوماليون أفارقة، تؤكد ذلك وهي تشير لجلد يديها. يتجهان للساقية وراء الكاونتر. تطلب فنجان إسبريسو دوبل وعصير برتقال لرفيقتها الشابة. بعد قليل تغادر السيدة ذات الوجه الشمعي المقهى ويحل محلها رجل خمسيني بعضلات منتفخة ووجه متجهم. علامة السجود للصلاة محفورة على جبينه. يتحدث على الهاتف وهو يأكل سندوتش هامبرجر. لكنته الإنجليزية طلقة لكنه يلثغ في حرف الراء.

الطائرة على الممر منذ ساعة والإقلاع تأخر عن موعده. الميكروفون يخروش إيذانا بإعلان هام. على متن الطائرة المتجهة من تورونتو لمطار ديترويت تم اكتشاف حقيبة مجهولة تحت أحد المقاعد، وجارٍ التعامل معها. تقول المذيعة وهي تنظر إليَّ عبر

الفراغ الفاصل بين مجلسينا: يشتبهون في وجود متفجرات. أبتسم وأرد: غالبًا. تقول: بل أكيد. توتر يسود المقهى. الجد يشتبك في حديث قصير مع الشاب صاحب السماعات الخضراء. أسمعه يقول: بعد مبارك كان المجلس العسكري هو الحاكم الفعلي للبلاد فيما عدا فترة الإخوان القصيرة، الكارثة لم تتسبب فيها الثورة، تسبب فيها هؤلاء الفشلة. يقوم الرجل ذو العضلات لشراء قهوة وتتشبث السيدة السمينة بطاولتها خوفًا من أن يطول الانتظار. تنظر المذيعة شَزْرًا باتجاه الجد. لا أعلم إن كان صوته المرتفع هو ما أثار ضيقها أم محتوى كلامه.

بعد برهة أضع سماعات الآيفون في أذني وأكف عن اختلاس النظر للناس من حولي. أختار ألبوم «الأبدية ويوم» للمؤلفة اليونانية «إليني كاريندرو» وأروح أتأمل الفراغ أمامي. يقودني التفكير لمشروع كتابي المؤجل. ربما حان الوقت بعد السفر والتنقل بين المدن والدول والقارات أن أشرع في عمل كتاب مصور عن المطارات. سيكون كتابي الثالث، وسأنظمه على نمط كتاب المصور الأمريكي «براندون ستانتون»، «بشر من نيويورك». سأضمنه صورًا ذاتية وبورتريهات بدرجات الأبيض والأسود والرمادي للناس والأماكن، تصاحبها كما في كتاب «ستانتون» حكايات قصيرة عن هؤلاء البشر، وجهتهم، تفاصيل الرحلة وأسبابها، المطارات التي غادروها وتلك التي يتجهون إليها. لا نرى الوجوه بشكل ساطع مثل وجوه «ستانتون»، بل نراها نصف غائمة، تتقاطع مع خطوط العمارة الحادة وفضائها اللا نهائي. الحكايات ستطول أو تقصر حسب السياق، وسيكون للناس كما في كتاب نيويورك طابع التعدد والتنوع العرقي والديني.

أتخيل المكان وكأنه مطار واحد، كوني. جدران هائلة من الزجاج، نوافذ لا سبيل لفتحها، أسقف معدنية وأعمدة خرسانية. وفي الخارج، حبات مطر وغيوم تظهر من بينها ذيول الطائرات وأجنحتها مثل كائنات فضائية هبطت من كوكب آخر. كل المطارات تتشابه، وحكايات البشر أيضًا. ربما أحصل على جائزة عن هذا الكتاب. كانت الترجمة العربية لكتابي عن الحرب السورية مرشحة لجائزة عربية كبرى، ولا أدري ماذا حدث. تدخل القدر أو تدخلت قوى أخرى وتمَّ تجاوز الكتاب والتعتيم عليه إعلاميًّا في الأوساط العربية.

أجول ببصري من حولي وأفكر في أن أخصص جزءًا من كتاب المطارات للمقاهي والمطاعم، وكذا محالّ السوق الحرة الباذخة. طعام بلا مذاق واستهلاك بلا احتياج حقيقي. أحقد على هؤلاء المتحذلقين والمتحذلقات، أصحاب الأموال الطائلة والوجوه المفبركة. وكل هؤلاء العاملين في المطارات. لا أحد يلتفت إليهم أو ينتبه لوجودهم. من هم يا ترى؟ فيما مضى، كنت ألتقط الصور خلسة للعاملين بالمطار وأعالجها على الكمبيوتر حتى تُطمَس معالم الوجه فلا أضطر لطلب موافقة صاحب الصورة على النشر. لابد أن لديَّ آلاف الصور على الهارد درايف. ماذا أنا صانعة بهذا الأرشيف الهائل؟ ما يقرب من أربعين سنة من السفر والترحال مسجلة بالصور، حتى صارت الوجوه حبيسة زمنها القديم. سيكون موضوع كتاب المطارات مشوقًا للجمهور العريض، قد أضمنه بعض الصور من الأرشيف، لكني هذه المرة سأنصت لحكايات الناس، وألتقط صورًا معبرة يرضون عنها ويسمحون بنشرها.

تترك الشابة ذات اللكنة المصرية مكانها وتقترب من المذيعة التي لم تعد شهيرة. تسألها: معذرة، هل أنت السيدة «ليندا ليندا»؟ يتهلل وجه المذيعة وهي تؤكد بابتسامة عريضة أنها «ليندا ليندا» شخصيًّا. تطلب الشابة الجلوس لدقائق فترحب «ليندا ليندا» وهي تكرر: أكيد أكيد. ثم تضيف بنبرة العارفين: فيه اشتباه في وجود متفجرات ع الطيارة. عنّا وقت نحكي شوي. تجلس الضيفة على الكرسي المقابل وهي تبتسم بانبهار وقد شعَّ وجهها بآيات العرفان. تقول إنها واظبت على مشاهدة برنامج «ليندا ليندا» وهي طفلة، وكذلك أمها. كان يذاع في مصر على القنوات الفضائية.

تذكرتُ «ليندا ليندا» ما إن سمعت الاسم. كانت تقدم برنامج منوعات باسمها وكانت تضمنه بعض الفقرات السياسية عن الأوضاع في الشام والعالم العربي تقدمها بصياغة ساخرة، تتبعها لقاءات مع ضيوف من عامة الناس يتم انتقاؤهم بعناية شريطة أن تكون لدى الضيف أو الضيفة قصة واقعية مسلية وغريبة تنتهي بحكمة أو موعظة. تتخلل اللقاء فقرات موسيقية، معزوفة أحيانًا من فريق متوسط الشهرة موجود بالإستديو. وكانت في بعض الأوقات تدعو مخرجًا شهيرًا كي يعلق على القصة الواقعية ويناقش صاحبها في إمكانية تحويلها لعمل سينمائي وسط تصفيق الجمهور. لم أكن أفهم الكثير مما يقال، لكنني كنت أحب الاستماع للأغاني المختارة وأستفسر من أبي عن مغزى الفقرات السياسية الساخرة. أما أبي وأمي وأخواي فقد كانوا يداومون على مشاهدة «ليندا ليندا» عبر ساتلايت عربي مسروق، حتى توقف البرنامج فجأة وتوارت صاحبته عن الأنظار، وقيل إنها هاجرت إلى أمريكا. ربما تزامن هذا مع العدوان الإسرائيلي على لبنان في ٢٠٠٦، وربما بعد ذلك.

لا أتذكر. أخرج الموبايل وألتقط خلسة صورة جانبية لليندا ليندا أرسلها لأمي على الواتساب.

قدمت الشابة المصرية نفسها باسم عاليا. وأضافت: معدة برامج في إم بي سي، مصر. تتحدث الإنجليزية بطلاقة. أتعجب أن تستخدم الإنجليزية في الحديث مع سيدة عربية مثلها. لكن الكثيرين من العرب الذين ألتقيهم في شمال أمريكا يفضلون استخدام لغة أجنبية مشتركة على محاولة التفاهم باللهجات العربية. قاطعتهما قبل أن يشرعا في الحديث، واستأذنتهما في ترك حقيبتي تحت رعايتهما ريثما أشتري فنجان قهوة. أومأت ليندا ليندا بترحاب وقد أحست بأنها باتت محط أنظار الجمهور. إيماءتها تُشعر من يراها بأنها سيدة ترتقي لمستوى المسئولية، فيما أجابت عاليا ببساطة: طبعًا، اتفضلي. بعد قليل عدت حاملة كوب قهوة اسبريسو وزجاجة مياه معدنية. كانت عاليا تحكي وليندا تنصت. شكرتهما وجلست أستمع للحكاية ونظري يتجول بعيدًا عنهما، بطيئًا، يتمهل فوق الوجوه والمناضد والمقاعد ومدخل المقهى وكأني لا أنتظر شيئًا، وكأني جئت هنا بطريق المصادفة. تكمل عاليا حديثًا لم أستمع لبدايته:

«لا، لست مقيمة في تورونتو. كنت في زيارة لحضور حفل زفاف ابنة عمي. الآن أذهب إلى مدينة آن أربر لزيارة صديقة، وأعود من هناك إلى تورونتو ومنها إلى القاهرة على الطيران الإيطالية. اضطررت لتغيير تذاكر السفر بسبب الوباء. هل تصدقين حقًّا حكاية الوباء؟ لا أعرف، أشك في كل ما يقال في الإعلام (تضحك). أعرف تمامًا كيف يتم تلفيق الأخبار. وأنت هل تقيمين في ديترويت؟ يبدو

أن هناك جالية إيطالية كبيرة في ميتشجن. أصلًا أنا عملت فترة في إيطاليا، معدة برامج ثقافية ومراسلة لعدد من الصحف العربية. ثم عدت لمصر ولم أجد عملًا يرضي طموحي. أفهم تمامًا انسحابك المبكر من المجال».

تبتسم ليندا ليندا بتواضع ويبدو أن كلام عاليا قد فتح شهيتها للحديث عن أسباب انسحابها المبكر من المجال، لكن عاليا لا تمهلها، تكمل بلا إبطاء وقد ركزت عينيها في عينيْ صاحبتها كعادة الثرثارين:

«إيطاليا بلد جميل، بحر متوسطي، تشبهنا في كل شيء. عشت فيها أعوامًا. انظري ماذا يحدث الآن. أنباء عن آلاف الموتى. أقول لك إني لا أصدق. لا أعرف. إيطاليا ساحرة. حدثت لي فيها مغامرات، يا الله! لن أحكي لك سوى واحدة منها فقط. ستعجبك. لو عدتِ لتقديم برنامج «ليندا ليندا» يمكنك استضافتي، حكاية شائقة فعلًا (تضحك عاليًا). كنت أفكر في كتابتها للصحافة، لولا أن زوجي يرفض. هو رجل أعمال إيطالي. ليس رجل أعمال بالضبط، بل صاحب أراضٍ ومزارع، لكنه شديد الاهتمام بأناقته، تعرفين، كعادة الإيطاليين. ليسوا جميعًا بهذه الأناقة، لكنه يحاول. صديقاتي في القاهرة ينبهرن به. اسمه ماتيو ونناديه تيو. ولد وعاش معظم حياته قبل زواجنا في ديروتا، تعرفينها؟ مدينة رائعة بوسط إيطاليا. في الجبال. في إقليم أومبريا. لا، لم تسمعي عنها. لا بأس. هي مشهورة بمتحف كبير للسيراميك وبصناعة الخزف الملون بالأزرق والأصفر المعروف باسم «المايولبكا» منذ عصر النهضة. مدينة ساحرة. لن تصدقي كيف التقينا. التقينا على طريق مهجورة بين المزارع. كنت تائهة ولم يمضِ

عليَّ أسبوعان في أومبريا. ولم أكن أجيد الإيطالية كما أجيدها الآن. كوزا إنكريديبلي! هبطت وحيدة في محطة قطار ديروتا سان نيكولو وسط المزارع. بلا خريطة، بلا هاتف محمول، فتاة مصرية وحيدة في الخامسة والعشرين من عمرها، لا تتحدث بغير العربية والإنجليزية، تلتقي برجل غريب، هناك وسط هذه المساحات الخضراء الشاسعة، وتقع في غرامه، هل تتخيلين؟»

مثلها لم أكن أتخيل أن ألتقي ببسّام في مونتريال، المدينة التي ولدت بها وغادرتها مع أبويَّ وأنا بعد طفلة رضيعة. بعد أن جبت الكرة الأرضية شرقًا وغربًا، عدت لمسقط رأسي لأجد العريس المناسب. كنت قد بلغت الأربعين بلا زواج. ولم أستقر في علاقة أكثر من عامين. التقينا في افتتاح معرض للفوتوغرافيا الصحفية، أقيم في بهو مبنى من مباني الجامعة في فبراير عام ٢٠٠٠. شاركت بصورتين التقطتهما في مخيم النيرب الفلسطيني في حلب، وكان الطلاب والزوار يتوقفون عندهما طويلًا ويطرحون الأسئلة فأحكي لهم بحماسة قصة سفري عن طريق مفوضية الأمم المتحدة لشئون اللاجئين، وكيف أنها الزيارة الأولى لي في سوريا برغم أني كندية - أمريكية من أصل سوري. وأجيب: كندية من مونتريال، أمريكية من ديربورن، سورية من حلب؛ باعتبار أن أبي أصلًا من مدينة حلب، وأن أمي أمريكية ولدت لعائلة دمشقية استقرت في ديربورن منذ نهايات القرن التاسع عشر.

« ويبدو لفرط سذاجتي أني سرت في الاتجاه المعاكس لاتجاه المدينة. توغلت على الطريق وسط الحقول. شمس مايو جميلة، الهواء لطيف وسارٍ، هسيس الريح بين أوراق الشجر، والعطش.

فجأة شعرت بالعطش وخفت. اقتربت من سياج أحد المنازل الريفية وناديت على سيدة عجوز كانت تجلس قريبًا من عريشة ياسمين. قامت وسارت خطوتين نحوي ثم توقفت. تمشي بصعوبة شديدة. سألتها عن الطريق للمدينة ردت بالإيطالية. لم تفهم كلمة إنجليزية واحدة، كيف هذا؟ لا أدري! قلت لنفسي إنها عاصرت الحرب العالمية الثانية على أقل تقدير، ولابد أنها تعلمت الإنجليزية من العساكر الأمريكان. ولا حرف. لم تستطع المساعدة. أشارت بيدها تعيدني صوب المحطة حين وجدتني أكرر بإيطالية مرتبكة: «دوفي لاتشيتا دي ديروتا». المسكينة، كانت تحاول أن تفهمني أننا في ديروتا. أين المدينة؟ وأين المتحف إذن؟ مضيت صوب المحطة من جديد. دخلت البهو الصغير المفتوح على الحقول من الجانبين. وجدت ورقة وحيدة مهترئة معلقة على جدار زال طلاؤه تشير لمواعيد القطارات. القطار القادم يأتي بعد ساعتين. عدت إلى الأسفلت وسرت على غير هدى في الطريق الرئيسية بموازاة شريط القطار، ثم سمعت صوت سيارة قادمة من خلفي. التفت سريعًا وقررت بلا أدنى تفكير أن أوقفها. كانت سيارة نصف نقل، سائقها ريفي، تفوح منها رائحة روث البهائم. السائق شاب وسيم، يرتدي قميصًا أزرق مفتوحًا ويطلق شعره البني الغزير على كتفيه. بعد حوار قصير حاولت أن أشرح فيه مشكلتي، دعاني للركوب. بدا لي شخصًا لطيفًا، نظر إليَّ بتعاطف وفكر قليلًا ثم قال: مرحبًا. اسمي ماتيو. مزرعتي كبيرة. ثلاث عبارات بالإنجليزية هي كل حصيلته. لطيف ومهذب ومضحك للغاية».

***

في تلك الزيارة البعيدة لمونتريال، بدا لي أن الكنديين أكثر تهذيبًا ولطفًا من جيرانهم في الجنوب. لم يعترض أحد من زوار المعرض على صورة السيدة الفلسطينية العجوز التي تعلق مفتاح بيت أبيها في رقبتها. جاءت المعارضة فيما بعد، من قبل صحفي عنصري بجريدة تدعم حزب المحافظين شنت حملة على المعرض؛ لأنه سمح بعرض صورتين من فلسطين لمصورة سورية - أمريكية (تجنب الإشارة إلى كوني كندية المولد) تدعم (من وجهة نظره العنصرية) الإرهاب الفلسطيني ضد إسرائيل. بالطبع لم تكن هناك أي إشارة لإسرائيل من قريب ولا من بعيد في هذا المعرض، لكن المقال كان يطالب بسحب الصورتين ونشر اعتذار رسمي من قبل الجامعة. احتشد الطلاب من أصول فلسطينية وعربية للرد على المقال المجحف، وشاركوا في عمل ورديات لحماية المعرض في الأسبوع الأول من إقامته، حتى حدث ما كان متوقعًا مع تصعيد الموقف في الميديا واشتراك آخرين في الحملة المعادية للمعرض. فقد قام مجهول بتخريب صورة السيدة العجوز بتمزيق وجهها وثوبها. أعلنت إدارة الجامعة عدم مسئوليتها عن الحادث؛ نظرًا إلى المنطقة المحيطة بالجامعة تعج بالمتسولين وبعضهم يدخل للبهو المفتوح طلبًا للدفء. كتبت الصحف العربية الصادرة في مونتريال عن الحادث؛ بعضها لدعم المعرض والدفاع عن صورة العرب في الميديا والدعوة لحوار عربي-إسرائيلي محوره دور الفن في التقارب بين الشعوب، وبعضها لفتح ملفات المؤامرة الصهيونية وفضح اللوبي الصهيوني النشط في مونتريال واتهامه بالمسئولية الكاملة عن هذا العمل التخريبي.

لهذه الصورة قصة حزينة أرويها في كل مناسبة أدعى إليها. كانت تؤثر في السامعين وتلفت الانتباه لقضايا فلسطينية مثل نزع الملكية وحق العودة. اسم السيدة صاحبة الصورة جذاب وغير متداول. اسمها مَيسَم. جاءت إلى مخيم النيرب وهي في الثامنة عشرة من عمرها عام ١٩٤٨ بعد أن مات خطيبها وأبوها وأخواها في الحرب ضد الميليشيات الصهيونية، وظلت بالمخيم لم تخرج منه حتى وفاتها. التقطت لها الصورة في حجرتها الضيقة؛ حيث يظهر في الخلفية تل من الأغراض متباينة الألوان والأحجام معقودة على هيئة بقجة من القماش. كانت مَيسَم تكور أغراضها منذ النزوح إلى المخيم، وتضعها صرة فوق صرة حتى علا التل وبلغ السقف المصنوع من ألواح الألومنيوم. وكانت تكرر على كل من يزورها أن إقامتها في المخيم مؤقتة، وأنها ستعود يومًا إلى بيت أبيها في قرية الصفصاف[1].

تصف البيت بدقة متناهية، تتذكر أنواع وأماكن الأشجار في الباحة والحقل، تحفظ خريطة القرية عن ظهر قلب وموقع البيت من الخريطة. فيما عدا هذا فإن ذاكرتها كثيرًا ما تخونها. عافت الزواج فتفرغت لرعاية صغار المخيم، وصار الناس ينادونها «إم مَيسَم». التقيتها بالمخيم عام ١٩٩٨، والتقطت لها الصورة بعد مقاومة شديدة من جانبها. لم توافق إلا حين أقنعتها بأن أحدًا من عائلتها قد يتعرف عليها ويعود لاصطحابها إلى قريتها بفلسطين. همهمتْ: فلسطين المحتلة، ومدتْ يدها للمفتاح المعلق برقبتها وقبلته. التقطت لها عددًا كبيرًا من الصور انتقيت منها واحدة تنظر فيها مباشرة للكاميرا ولا تبتسم، وقررت تكبيرها والمشاركة بها في

---

(١) بوحي من أعمال المصورة الفلسطينية - الأردنية - الكندية إيمان حرم.

المعرض الكندي جنبًا إلى جنب مع صورة لأطفال يقفون بجوار خريطة لمدينة عكا رُسمت باليد على حائط المدرسة الجيري. بعد عامين، قبيل افتتاح المعرض، علمت بوفاة إم مَيسَم من أحد شباب المخيم. وللمرة المائة وقفت في المعرض أحكي حكاية الصورة.

«كان لابد أن أركب مع هذا الشاب. ما الحل؟ لا حل آخر سوى المغامرة. توغل بي بين الحقول وأنا لا أكف عن الثرثرة. أقول ربما يلتقط كلمة بالإنجليزية ويرد عليها. لا شيء. ظل صامتًا طوال الرحلة، وظلت رائحة البهائم عالقة بأنفي حتى بلغنا المزرعة الكبيرة. كانت في الحقيقة متوسطة الحجم، تمتد خلف البيت حقول العنب، ويوجد في الجهة المقابلة للبيت إسطبل وعريشة تتوزع تحتها موائد من الخشب على هيئة براميل. صفّ السيارة في الظل بالقرب من بيت مغطى بالقرميد ومغلف بالطوب ونوافذه الخشبية مدهونة بلون برتقالي كالح. طلب مني بإشارة من يده أن أظل بالسيارة. هبط منها واختفى داخل البيت. الحق أقول، أخذتني الظنون ألف مأخذ. فكرت أنه سيستدعي أصدقاءه ليقوموا باغتصابي وتعذيبي وقتلي ودفني في هذا المكان ولا من شاف ولا من درى. سيكون هذا درسًا لك يا عاليا لن تنسيه أبدًا (تضحك). معذبة، ومقطعة إربًا، ومدفونة في حقول إيطاليا، الدرس الأخير في حياتي النزقة. أو ربما يطلب الشرطة. بحثت في حقيبتي عن تحقيق الشخصية، واطمأن قلبي حين وجدت صورة فوتوكوبي من جواز السفر المصري. وربما أيضًا يقتلني بلا سبب. يداه كبيرتان، ولن أستطيع مقاومته لو أراد خنقي أو تكتيفي. ولماذا يغيب بالداخل هكذا إن لم يكن يبحث عن أداة قتل. أكبر هراوة.

أكبر سكين بالمزرعة، ذلك الذي يستخدمونه لذبح الشياه؟ ارتعبت لكني لم أفعل شيئًا. كان الهواء عليلاً والهدوء يخيم على المكان. بعد قليل، هبطت من السيارة وجلست على دكة خشبية في الظل واستسلمت للنعاس. مضت نحو عشر دقائق بعدها وجدته واقفًا فوق رأسي يهز كتفي بيده الخشنة ويشير أن أتبعه».

اقترب مني بسّام واستمع للحكاية، وانتظر حتى انفض الناس ثم عرّفني بنفسه. قال إنه سوري من مونتريال ويريد إجراء حوار معي للجريدة التي يعمل بها. وافقت على الفور معتذرة بأني أجد صعوبة في الحديث بالعربية، واتفقنا على إجراء الحوار بالإنجليزية. بعد انتهاء الافتتاح قبلت دعوته لتناول فنجان قهوة في مقهى قريب من الجامعة. سرنا معًا للمقهى، نخوض في الثلج تارة، وتارة أخرى نحاذر الوقوع على الأسفلت الذي تكسوه طبقة من الصقيع تشبه المرآة. كان دفء المقهى وهدوءه لافتًا. تخلصنا من معاطفنا على الفور، وأخذ معطفي وعلقه على مشجب بجوار الباب مثل أي جنتلمان. بعد طلب القهوة، انتقينا مكانًا قصيًا وأخذنا نتحدث عن المعرض والتصوير وحياة المهاجرين في كندا، وحياتهم في أمريكا، وكيف تتشابه الظروف وكيف تختلف، وكيف يحلم البعض بالعودة، وكيف أنه شخصيًا لم يعد لمسقط رأسه في حلب منذ أن اضطر للجوء السياسي لكندا في الثمانينيات. قال إنه عانى كثيرًا إثر مجزرة حماة وتكون الميليشيات المسلحة وانهيار الاقتصاد حتى أفلح في الهرب عن طريق البر إلى لبنان ومنها إلى كندا. أخبرته كيف ولماذا عدت إلى سوريا، وكم كانت التجربة ملهمة وقاسية في الوقت ذاته.

لم نشعر إلا وقد مضت أربع ساعات وخلا المقهى من الرواد. في الخارج، هبط الليل كثيفًا. عرض أن يوصلني للفندق، وودعني عند الباب على وعد بأن يرسل لي نسخة من الجريدة بعد نشر الحوار.

كان رجلًا جذابًا بحق، فارع الطول، شديد الأناقة، يشبه نجوم المسلسلات السورية التي تشاهدها أمي بانتظام، مع فارق كونه أقل ذكورية في تعاطيه مع النساء وأكثر رومانسية في أحكامه السياسية. وحدها لحيته الكثيفة لم تعجبني. بعد أن نشأت بيننا علاقة حب اشترطت أن يحلقها لو أراد أن نستمر معًا. ضحك ولم يحلقها حتى تعودت عليها، وباتت مؤشرًا مهمًّا أعرف منه حالته المزاجية. إن طالت عن الحد الزائد، أعرف أنه يعاني من الحزن وأنه منسحب من الحياة، وإن قصرت حتى انكشفت منابت الشعر وتهذبت حوافها، أعرف أن لديه صديقة جديدة يريد استمالتها، غالبًا ما تكون عربية، وغالبًا ما تكون عميلة تفكر في شراء سيارة من الفرع الذي يديره بكفاءة منذ سنوات.

«كان شعر ماتيو مبتلًّا بعد الحمام ورائحته زكية. أتذكرها حتى اليوم تلك الرائحة. خليط من اللافندر والليمون. بَدَّل قميصًا أزرق نظيفًا بالقميص الأزرق المتسخ، وتركه مفتوحًا، تتدلى من فتحته سلسلة ذهبية سميكة يعلق فيها صليبًا. أشار لي أن أتبعه، أخذت حقيبتي من الشاحنة وتبعته لباحة خلف البيت تقف بها عربة فيات أنيقة مفتوحة النوافذ تلمع في الشمس كأنها نُظفت لتوها. استقر خلف مقود السيارة ودعاني بإشارة للركوب. انطلقنا ثانية بين الحقول لمدة نصف ساعة أو يزيد. أجمل نزهة في حياتي. كأنما كُتب لي عمر جديد (تضحك). بالطبع لم أحكِ لأبي وأمي عن

تلك المغامرة. لو عرفا لعنفاني لأني أثق بالناس ولا أحسب حسابًا للعواقب. الحقيقة أني أثق بالناس حتى يثبت العكس، والثقة عادة ما تستدعي مثيلتها. في السيارة لم أكف عن الحديث. أعرف أني ثرثارة، لا أطيق الصمت. كأن همًّا كبيرًا قد انزاح عن كاهلي. حدثته عن زيارتي لإيطاليا للتدريب على إعداد وتقديم البرامج الإخبارية للتلفزيون، عن عشقي للسيراميك والخزف وكل أنواع الفخار، عن رغبتي المفاجئة في الاستقرار هنا في تلك الحقول، يومًا ما، عن أهم الأكلات الإيطالية التي أحببتها في الأسابيع القليلة الماضية، عن عائلتي بالإسكندرية، عن الإسكندرية وكيف أنها تشبه نابولي، حدثته عن أي شيء وكل شيء. وظل هو صامتًا، يبدو خجولًا وواثقًا من نفسه في آن واحد، يبتسم أحيانًا ويقود السيارة باسترخاء كأنه يقود رفيقته في فالس راقص. مع كل انحناءة من انحناءات الطريق تفوح منه رائحة عطر اللافندر والليمون. أضم الكفين معًا حتى تقترب الأصابع من ذقني وأنا أكرر: أنجيلو! أنجيلو! فيرد ضاحكا: نو، نو، ماتيو!»

توقفت عاليا عن الحديث كمن يلتقط أنفاسه فسارعت ليندا ليندا بتعليق سريع؛ خوفًا من أن تنطلق عاليا مرة أخرى في الثرثرة. قالت: مهضوم كتير. وهلق صار زوجك. نيالك ها الملاك.

صار بسّام زوجي بعد عشر سنوات من الانتظار وفقدان الأمل، تخللتها فترات من الفتور والانفصال. بعد عام من الفليرتنج واللقاءات المتقطعة في بيته بمونتريال ثم ديربون، بعث لي على الهاتف شطرًا من أغنية لفيروز تقول: «تبدو كأن لا تراني/ وملء عينك عيني». لغتي العربية ليست سليمة، أقرأ بصعوبة بالغة وإن

كنت أتذوق موسيقى الكلمات. عندما استوضحته، ترجم الأغنية كاملةً إلى الإنجليزية وأرسلها على دفعات. بعد تفكير أجبته قائلة إن الشعر دائمًا كاذب والشاعر أيضًا. قلت إني أراه جيدًا، وهو الذي لا يراني. ثم أرسلت جملة من أغنية أخرى لفيروز تقول: «يا بدر أنا السبب أحببت بلا أمل». ولما تأخر الرد، سألته عن اسم كاتب الكلمات. أجاب في التو: زكي ناصيف. وبعد قليل أرسل ردًّا يقول: الشعر دائما كاذب، لكن الأمل، حتى لو كان واهيًا، هو ما يبقينا على قيد الحياة.

كنا نعيش أزهى عصور الرسائل الغرامية على الموبايل. برغم صعوبة الكتابة على التلفون النوكيا، كنت أرسل له يوميًّا نحو عشرين رسالة قصيرة. يرد في التو: لو لم يكن مشغولًا بالعمل. نشعر كأننا في مكان واحد برغم المسافات، ونضحك باستخدام أيقونة الوجه الضاحك الوحيدة المتاحة في ذلك الوقت. وبرغم ضحكنا الكثير والراحة التي كان كل منا يشعر بها في وجود الآخر، فإن فالس فيروز الناعم وصوتها الشجي وهي تردد: «أهواك بلا أمل» صاحباني لسنوات هي عمر علاقتي المستحيلة ببسّام قبل زواجنا.

الحق أن بسّام منحني بعض الأمل، وخفف عني مشاعر الندم وهو يكرر أن علاقتنا أجمل من أن نختصرها في احتياج عابر أو نزوة طارئة. وكنت أحتاج إليه أكثر من احتياجه لي؛ لأسباب عملية بحتة، غلفتها ببعض المشاعر لتمرير العوز والضيق. بعد أربعة أعوام من لقائنا في المعرض بمونتريال، أخرجني من بيت أبي بمنطقة سبرينج ويلز (يسميها آبار الربيع) غير بعيد عن مسجد ديربورن ومقابر وودمير، واستأجر لي ستوديو صغيرًا قريبًا من محل عمله

الجديد بالمتحف الوطني. توقعت أن يكون كريمًا معي في مقابل صبري وإقبالي عليه. طالبته بإصرار بأن يعولني، ليس فقط لأستقل عن أهلي، ولكن لكي تستقر علاقتنا في إطار شبه رسمي، بعيدًا عن اللحظات المسروقة في بيته حين تغيب زوجته في المصحة، وبعيدًا عن موتيلات الضواحي التي كنا نقضي في غرفها الرخيصة بضع ساعات بمنأى عن أعين الناس وضوضاء العمل.

أنا أيضًا منحته حياة ثانية. عوضته سنوات اليأس مع زوجته المسكينة «كارول». ودربته على اقتناص الفرص، وهي قليلة في حياة المهاجرين أمثالنا. بعد انتقاله لديربورن، ساعدته في الحصول على عمل في جريدة ديترويت صان التي ظل أحد مراسليها لشئون الشرق الأوسط لمدة أربعة أعوام. تَحصلَ على الوظيفة براتب بسيط وثابت بفضل إتقانه للغتين العربية والإنجليزية، وذلك في خضم الفوضى العارمة التي سادت أمريكا عقب أحداث سبتمبر ٢٠٠١. وقتها، استيقظ العاملون في مجال الميديا ليكتشفوا حجم جهلهم بالثقافة العربية عامة وبالعرب المسلمين بصفة خاصة، هؤلاء الذين ابتدعت الإدارات الأمريكية المتعاقبة طرقًا جهنمية لهدمهم وهدم دولهم، فإذا بهم يهاجمون الإدارة الأمريكية في عقر دارها. صرخة يقظة عادت علينا أنا وبسّام بفائدة شخصية: استقراره في العمل بديربورن، وتكسبي من وراء التصوير الصحفي في دول الشرق الأوسط.

بعد أن هدأت حمى ٩/١١، وجد بسّام وظيفة براتب أفضل في المتحف الوطني للعرب الأمريكيين، وظل يعمل هناك حتى وفاة زوجته. كان آنذاك قد أتم الخمسين، وكانت صافية في السنة

الأولى بالجامعة. بوفاة كارول، بدا وكأن حياته تهتز وتتداعى. ظل لسنوات الراعي الأول لها، هي الكائن المحوري الذي ينظم على أساسه يومه ومسئولياته. باختفائها فقد الهيكل الذي ظل يتحرك في إطاره لسنوات وغمره حزن شديد. كنت أعرف مقدار حبه لها. لكنني كنت أعلم أيضًا كيف امتصت رحيق حياته قطرةً قطرة بأنانية منقطعة النظير، وكيف استسلم بلا مقاومة وأنكر لأعوام أن يتصف المصابون بالاكتئاب بالأنانية. ظل معترفًا لها بالجميل؛ لأنها انتشلته من وضعه كلاجئ وتزوجته ومنحته فرصة الحياة في كندا، ويشعر بالخزي من تعدد حكاياته الغرامية ويلتمس لنفسه كل الأعذار لتمرير الخيانة.

بعد أشهر من الوفاة، أقنعته بترك العمل في المتحف والالتحاق بفضل علاقات أخي مروان بالعمل في مجال صناعة السيارات. كنا بحاجة لاستقرار مادي حقيقي، يسمح لي بممارسة مهنتي بلا قيود، ويسمح له بأن يستمر في إعالة ابنته ودفع مصاريف دراستها في إحدى الجامعات المرموقة فيما يسمى بالآيفي ليج (رابطة اللبلاب كما يدعوها بسّام). لم أتركه نهبًا للهواجس والمخاوف طويلًا. نظمت حياته وساندته للخروج من محنته المضاعفة؛ الزواج الفاشل من ناحية، ووفاة أم صافية من ناحية أخرى. أدركت أن خوفه من التوهة والفوضى أكبر بكثير مما تخيلت. كان بحاجة لنظام ثابت، لا يشعر بالأمان إلا في تكرار الأفعال اليومية، انتظام المواعيد، التخطيط للمستقبل القريب والبعيد، وانعدام المفاجآت. كان مترددًا أيضًا، لا يقدم على خطوة إلا بعد أشهر من الحيرة والتسويف. هكذا طالت فترة الحداد لمدة عامين حتى وافق على زواجنا.

«تزوجنا بعد أقل من عام على لقائنا في ديروتا. تريدين أن تعرفي ما حدث في ذلك اليوم؟ أقول لك إنه شيء أشبه بالأفلام. فيلم رومانسي أمريكي تدور أحداثه في إيطاليا. لكنها الحقيقة فعلًا، بلا كذب ولا تلفيق. وصلنا وسط مدينة ديروتا، وهبطت من السيارة عند سفح طريق صاعدة أشار إلى قمتها حيث يقع مبنى متحف الخزف العتيق. ودعته بقبلة خاطفة على الخد وأنا أكرر شكري العميق. عندما خرجت من المتحف بعد ساعتين أو يزيد وجدته في انتظاري. كان يدخن سيجارة ويبدو مرتاحًا. استفسر عن موعد القطار، فأخرجت تذكرة العودة من حقيبتي. بعد أن قرأها تهلل وجهه بابتسامة واسعة وأمسك بمرفقي وقادني لآخر الطريق حيث صَفّ سيارته. اصطحبني في جولة عبر شوارع ديروتا المقفرة، كانت الساعة الثالثة ظهرًا وكل المحال والمطاعم مغلقة، فيما عدا تراس وحيدًا بدا أن صاحبه صديق لماتيو. كان مفتوحًا على غير العادة وكان صاحبه في انتظارنا. أعد لنا باستا شهية بالريحان والطماطم وقدم معها نبيذًا أحمر فاخرًا ثم قهوة إسبريسو ومعها تارت الليمون. بعد أن عادت المحال للعمل تجولنا في المدينة ساعتين. ديروتا! يا الله على جمال ديروتا. متحف مفتوح للخزف والسيراميك. معظم المحال الكبيرة لديها ورشة خزف في الباحة الخلفية للدكان. دخلنا بعض الورش وتعرفت على الخامات المستخدمة وطرق طلاء السيراميك. أغدق عليَّ الخزافون هدايا صغيرة حين عرفوا أني من الإسكندرية. وماتيو يحكي لهم قصتي، فيضحكون، ويخمن أطرافًا من حديثي معهم، خاصة في المحال السياحية الكبيرة التي يتقن أصحابها الحديث بالإنجليزية، وينظر إليَّ بفخر كأنه عثر على عروس البحر.

في نحو السابعة مساءً، أخذني إلى محطة القطار. جلسنا متجاورين، صامتين، عطره مدوخ ومشاعري مرتبكة. ثم خطر لي أن أكتب له عنواني ورقم هاتفي في بيروجيا، ففعلت. دوَّن رقم هاتفه النقال وهاتف المزرعة على كيس الهدايا الورقي وأعاده لي. يمكنك أن تتخيلي مدى شعوري بالفرحة وأنا أعود في المساء للغرفة الصغيرة التي استأجرتها في بيروجيا، وأضع مقتنياتي الجديدة نصب عينيَّ. الزهرية الصغيرة البيضاء المزينة برسوم نباتية يغلب عليها اللونان الأصفر والأزرق، والملعقة المصنوعة من الخزف التي عرفت أنها توضع بالقرب من الفرن وتصلح وعاءً لملاعق وأدوات الطهي، وعلبة المجوهرات المستديرة بغطائها الأصفر وحليتها الذهبية. أفكر متى أعود لديروتا، وهل يتصل بي ماتيو على الهاتف ليطمئن على وصولي بالسلامة، أم ينسى أمر لقائنا برمته؟ قبل النوم هاجمتني هواجس كثيرة من بينها أني لو لم أتزوج هذا الرجل فلن أتزوج أبدًا. حقًّا، بلا مبالغة! كان هذا شعوري. لم يأتِ الصباح إلا وكنت أفكر في أفضل طريقة لاقتناصه (تضحك عاليًا)».

أما أنا فقد اقتنصت بسّام بعد سنوات من الانتظار. وربما لم أقتنصه حقًّا، بل شاء القدر أن يهبط على حياتي مثل طائر الرخ. ثماني سنوات كنت أثناءها «المتروكة» بامتياز، وكان هذا الشعور قد بدأ يعذبني. لم أتزوج حبيبًا أحببته، لم أنجب، لم أقتنِ كلبًا ولا قطة. بلغت الأربعين وتجاوزتها وحدي، وفي أفضل الظروف أمضيتها في علاقات عابرة، متنقلة بين وظائف صغيرة ومهام صحفية لا تسمن ولا تغني من جوع. كانت لي صداقات ومغامرات مع

شباب من أصول عربية، لم تثمر شيئًا. هناك حائل يحول بيني وبين هؤلاء؛ ربما لأني كنت أصر على حريتي؛ أو لأني كنت أنتقل من بلد لبلد بسبب طبيعة المهنة. استقر لديَّ شعور بأن ثمة عيبًا ما في شخصيتي أو في طبيعة عملي أو في كليهما هو ما ينفر الرجال من البقاء معي في بيت واحد.

لكني لستُ ملاكًا! لا أستطيع أن أدعي هذا، بل أكره أن يتصورني الناس في هذه الصورة. فقد كافحت لأكون امرأة قوية مستقلة وتنازلتُ أحيانًا عن رجال أحبوني بلا مبرر واضح؛ بدافع من شيطان لا أعرفه، الملل، عدم الرضا، الفقر وشظف الحياة التي عرضوها عليَّ، الاختناق في وجود غرباء غير أبي وأمي وأخويَّ. لست أدري. آثرت أن تكون لي علاقة متقطعة مع رجل أحبه على أن أتزوج بشكل تقليدي على الطريقة العربية.

حياة المهاجرين على أطراف المدن الكبيرة حياة صغيرة بلا طموح، بلا شغف. بيوت صغيرة متشابهة، مظلمة، رواتب ضئيلة، حلم التقاعد المبكر التعس، السعي للادخار والشكوى من ضرورة إرسال المال للأهل في البلد البعيد، رتابة الواقع اليومي، الرجال يتابعون الأنباء في التلفزيون كل مساء، والنساء يتلهين بالطبيخ وتنظيف البيت (يا إلهي، كم من الوقت تضيعه النساء في المطبخ!) ومتابعة أخبار العائلة في سوريا وفي الشتات، والكل يغذي وهم العودة يومًا ما للوطن الأم، إما بصحبة أبناء وبنات الجيل الثاني والثالث الذين ولدوا في الشتات، وإما في رحلة نهائية لقضاء فترة الشيخوخة وسط من تبقى من العائلة، وإما بغرض الدفن في مسقط الرأس في حال من هاجروا في سن متأخرة وأوصوا بعودة الجثمان

للوطن الأول. في النهاية لا يعود إلا من تُيسر لهم مدخراتهم تحقيق تلك الأمنية عزيزة المنال.

***

ينتشلني الميكروفون من تيه الذكريات والأفكار. تعلن المضيفة عن قرب إقلاع الطائرة المتجهة لديترويت وتغيير بوابة السفر. ألتفت إلى النافذة فأرى الطائرة التي كنت أظنها طائرتنا في مكانها. لماذا إذن تغيرت بوابة الإقلاع؟ يسود هرج ومرج في المقهى. أفرغ ما تبقى من زجاجة المياه المعدنية في جوفي وأضع التلفون والسماعات في حقيبتي وأهُمُّ بالقيام وجر حقيبة ملابسي الصغيرة حين أسمع عاليا تقول: «الحياة في مزرعة مستحيلة. أنا ابنة المدينة، ابنة الإسكندرية، كيف أحيا في مزرعة تائهة بين الحقول؟!».

لا شك أن جزءًا من الحديث قد فاتني. ترى كيف تزوجت عاليا ماتيو؟ وهل وافق الأهل في الإسكندرية على الخطيب الإيطالي؟ ألملم أغراضي سريعًا وأنا أبتسم لجارتي، ينتبهان لوجودي ويدركان في لمح البصر أني كنت أنصت للحكاية مثلي مثل ليندا ليندا التي استطاعت بالكاد أن تلقي جملة أو جملتين في شلال الحكايات المتدفق من فم عاليا. تقول عاليا وهي تحيد ببصرها عني وتعود لتركزه على عيني ليندا ليندا: «كان هذا شرطي الوحيد على ماتيو، أن ينتقل للعيش معي بالإسكندرية. حياة القرى حياة صغيرة لا تليق بي».

حياة صغيرة لا تليق بي. تتردد جملة عاليا في أذني وأنا أمضي باتجاه بوابة الإقلاع الجديدة. لابد أن بيني وبين عاليا ما يزيد

على عشرين عامًا لكنها تبدو أكثر حنكة مني، أكثر خبرة بما تريد وما لا تريد من الحياة. فيما عدا سفراتي هنا وهناك، والتي كانت تغويني بتصورات أرحب عن الحياة والصعود الاجتماعي والثراء، كنت أعود دائمًا إلى حياتي الصغيرة التي لا تليق بي في ديربورن، بلا رابط يربطني برجل أو أبناء، وبلا دخل ثابت. تؤرقني فقط لحظة العودة لبيت أمي وأبي، وهبوطي بحقيبة السفر إلى البيسمنت المظلم. ينتظرني أبي أو تنتظرني أمي لا فرق، لديهما حياة مختلفة عن حياتي، ولولا افتقاري للدخل الثابت لغادرت بيتهما في شبابي إلى غير رجعة.

أتذكر مشهد عودتي منهكة من رحلة إلى مصر في خريف ٢٠٠٥. لم يكن أحد بانتظاري في المطار، ولا حتى بسّام. وجدت البيت مظلمًا كعادته في المساء حين يصعد أبي وأمي لمشاهدة التلفزيون في غرفتهما. هبطت إلى البيسمنت وأضأت النيون الشاحب في الممر المفضي لغرفتي، وفكرت وأنا أجر حقيبتي الصغيرة أني متروكة لحالي، باختياري أو بدافع من الظروف. الغرفة مكدسة بأغراض شتى؛ بعض الملابس معلقة على مشجب في الحائط، زجاجات بيرة فارغة منسية على إفريز الشباك الموازي لأرض الحديقة، كومة من الملابس فوق كرسي ورثته عن جدتي تغطيها منشفة بحر كبيرة لا أدري ما الذي جاء بها هنا، أحذية الشتاء في ركن وأحذية الصيف في الركن المقابل مكومة بلا ترتيب، أوراق وصور ومنشورات ملونة على الطاولة، وبجوار الفراش بعض كتب التصوير، معدات وكاميرات قديمة وحوامل متفاوتة الارتفاع يظهر بعضها من تحت الفراش وبعضها الآخر يستقر على رف دولاب

مفتوح على مصراعيه. ألقيت بحقيبتي على الفراش، المساحة الوحيدة المنظمة في فوضى المكان حيث حرصت أمي على ترتيبه كل صباح، وهبطت فوق كرسي جدتي كمن يجلس على تل صغير بالقرب من فوهة بركان.

أردت أن أغير حياتي في تلك اللحظة. كانت لحظة شبيهة بلحظات أخرى مرت بي ولم تترك أثرًا. هذه المرة، أحسست بأن التغيير قادم لا محالة وأن الحل سيكون بين يدي بسّام. في مصر، تلخصت مهمتي في تصوير انتخابات الرئاسة التي فاز فيها مبارك بفترة رئاسية خامسة واندلاع مظاهرات حركة كفاية. في ذلك المساء، قررت أنا أيضًا أن أقول: كفى لحياتي التي تشبه نصف حياة، ولكل الحلول الوسط والاستثناءات والمفاوضات وتضييع العمر في الأوهام.

تغلغلت مشاعر الوحدة مع الوقت حتى خلت نفسي غير قادرة على العيش مع رجل. الاستثناء الوحيد كان زميلي في مشروع ستوديو التصوير سامي نصري. على الرغم من براعته في اختلاق أسباب النكد ومزاجه السوداوي، احتملته عامين كاملين قبل الانفصال؛ فقط كي تستمر العلاقة بيننا وأستمر في العيش معه في شقته المتواضعة بجوار مصانع فورد. هجر سامي التصوير وأصبح يكتب الشعر الحر حتى ذاع صيته على الفيسبوك ككاتب أمريكي ملعون. فيما عدا تلك العلاقة الممتدة نسبيًّا، سعى الآخرون لإقامة علاقات حميمة أساسها الجنس؛ شريطة أن يعيش كل منا في بيته. البعض بحجة وجود أولاد من زوجة سابقة، والبعض بدون حجة.

هكذا، وبوصفي المتروكة بامتياز، لم أجد ما يملأ فراغ حياتي العاطفية سوى الانغماس في العمل. كلما استدعيت لتغطية

موضوع شائك، حسبتُ ألف حساب لما بعد الانتهاء من المهمة. مشاعر الوحدة تزداد حدة وينقلب مزاجي مائة وثمانين درجة. تمر المهمة عادة بسلام، لكن أعصابي تتهاوى لأسابيع بعدها وأحتمي ببيت أبي وأمي. لازمتني تلك الثنائية المقيتة منذ قيامي بأول زيارة للقدس. كنت في السنة الأخيرة بجامعة ميتشجن أدرس الأدب والترجمة. في العام التالي على اندلاع الانتفاضة الأولى ذهبت إلى فلسطين في رحلة نظمتها جمعية الطلاب العرب بالتعاون مع منظمة الأمم المتحدة للاجئين، وعدت منها إنسانًا جديدًا.

المسافة بيني وبين هذا العالم؛ موطن أهلي الأول، الجرح الدامي الذي خلفه صراع الهويات المتعددة السورية والأمريكية، ضيق العيش في مجتمع ظاهره الثراء الفاحش وباطنه ينضح بالظلم والتفاوت الهائل بين الطبقات، كل هذا انسحق واندمل أمام قهر الاحتلال الذي شاهدته بعينيْ رأسي في فلسطين. كانت مرحلة هامة في اكتشافي لذاتي إنسانًا ومصورة، بدأت أثناءها في تقديم نفسي على أني سورية أمريكية، وليس العكس، وتعلمت مبادئ القراءة والكتابة بالعربية. تفتحت عيناي على اتساعهما وأدركت الكثير مما غاب عني؛ جذور الصراع في المنطقة وطبيعته الاستثنائية، حق تقرير المصير وأوهام التفاوض السياسي وهول الفرص الضائعة.

بعد انتهاء دراستي الجامعية، سافرت للمخيمات الفلسطينية في سوريا عدة مرات، ثم غامرت بالعودة لسوريا عقب اشتعال الحرب. لم تكن أوضاع الفلسطينيين أفضل في المخيمات عنها في فلسطين المحتلة، ولم تكن إيديولوجيات العروبة الداعمة للقضية

الفلسطينية محل اهتمام من الأنظمة العربية إلا بهدف الدعاية. لكن نظرتي إلى القضية الفلسطينية وارتباطها باستقرار الأوضاع في سوريا تبدلت بعد نشوب الحرب. ارتعبت لمجرد تصور أن تسقط سوريا كما سقطت فلسطين وكما سقطت العراق. لم أكن وحدي، فقد ظل أبي داعمًا لشرعية النظام السوري بدافع من إيمانه بالقومية السورية حتى وفاته، وكذلك أخي مروان. وعلى الرغم من خوفه أن ألقى حتفي في مهمة من تلك المهام الصعبة، فإنه كان فخورًا بصوري المنشورة في الجرائد الأمريكية وبالتقارير المصورة التي داومت على بيعها عبر وكالات التصوير للصحف والمجلات العربية والغربية.

لم تنتهِ ٢٠١١ إلا وكنت قد خسرت عشرات الأصدقاء العرب والسوريين المؤيدين للثورة والمناهضين للنظام. احتدمت نقاشاتنا حول أعداد الموتى والمصابين والضحايا وحجم الدمار الذي تسببت فيه الفصائل المتناحرة. فضلت أن أصم أذني عن تلك الدعاية، فضلت أن أراها حربًا وليست ثورة. لا أخوض في التفاصيل خاصة مع بسّام الذي يعتبر أن أمثالي من المتشدقين بأفكار اليسار الأمريكي في وادٍ والناس في العالم العربي في وادٍ آخر. يقول إني لا قبل لي على فهم الثورة ولا استيعاب تعقيدات الواقع المر الذي يعيشه الناس في ظل العنف والخوف وكبت الحريات. بين حين وآخر يهتف صارخًا: كفى جهلًا. تكتبين عن الثورة وكأن الدماء التي أريقت ليست سوى لطشة لون قرمزية في حرب متخيلة يشنها الكون ضد النظام السوري. ثم ما هذا النظام الذي تدافعين عنه؟ ألا ترين التشابه الصارخ بينه وبين إسرائيل؟

سفك الدماء باسم الحفاظ على كيان الدولة، هل هذا ما تريدونه؟ وأي كيان هذا بوسعه أن يبرر ويلات الحرب والدمار وتشريد الملايين من أبنائه؟

أتركه يصرخ. من حقه أن يصرخ طالما أني اقتنصته لنفسي وتزوجته برغم سنوات من التردد من جانبه. ما دمنا نعيش تحت سقف واحد، وما دام مسئولًا عن إعاشتي. بعد أن يهدأ، أجيبه بصوت بارد: أنت تعلم حرصي على هذين الأمرين، ورأيي أن الدفاع عن الحق الفلسطيني لا ينفصل عن تأييد النظام السوري. هو الوحيد الصامد في مواجهة أمريكا، وهو الوحيد القادر على ردعهم في المنطقة. هذا رأيي ولن أغيره من أجلك. يشيح بيده وهو يتهمني بالبرجماتية والأنانية، ثم يهدأ ويلتصق ظهره بظهري في آخر الليل وتمضي الحياة على منوالها المعتاد. أسافر وأعود فأجده بانتظاري، مستقرًّا بين البيت والوظيفة، لا يخرج إلا نادرًا للقاء أصدقائه من السوريين والعرب. معظمهم من المعارضين السياسيين سواء من المهاجرين واللاجئين الجدد مثله أو من الأمريكيين ذوي الأصول العربية مثلي.

أصل أخيرًا البوابة الإقلاع وأتجه لمقعد شاغر غير بعيد عن كاونتر تقف خلفه مضيفة مشغولة بمراجعة ملفات على الكمبيوتر. أجلس وأريح ساقًا على ساق. المسافرون يصطفون في طابور قصير، معظمهم متجهم، تعلو الوجوه آيات التأفف ومظاهر التعب التي تخلفها ساعات الانتظار. خلف الحائط الزجاجي، تفتح الطائرة التي ستنقلنا جوفها لاستقبال حقائب السفر. أفكر: وما العيب في أن أكون برجماتية؟ هل هي تهمة؟ في الماضي عندما كنت أُستدعَى

لمهام أقل مأساوية من مهام تغطية الحروب والكوارث الطبيعية، كنت أركض وراء الموضوع زمنًا، هنا وهناك. أقبل الأجر الزهيد المتاح لتلك المهام الصغيرة، وأعود غاضبة من نفسي. صحيح أني أسعى دائمًا للرزق، لكني برغم الموهبة والثقة بالنفس لا أتحصل على المال إلا بمشقة كبيرة. وينمو شعوري بالفشل كوني ما زلت أحيا في بيت أهلي.

كانت حياتي قبل الأربعين حياة ركض دائم. أركض وراء الصور والناس، مدفوعةً بالرغبة في المغامرة والتعرف على العالم، وأعود إلى ديربون للغرفة الكابية نفسها. أحيانًا كنت أبحث عن مصدر آخر للمعاش غير التصوير. أعمل ساقية في مطعم، أو بائعة في محل ملابس في انتظار مهمة جديدة. يظل التصوير، والتصوير وحده، شغلي الشاغل ومصدر الطاقة والحياة. تفتر همتي كلما ابتعدت عنه وتعود إليَّ حيويتي كلما سافرت سعيًا وراء موضوع.

عدتُ من مصر، وبعد أسابيع قليلة كُلفت بمهمة لتصوير فريق إنقاذ الحيتان الحدباء من الموت على شواطئ كاليفورنيا. اتصلت ببسّام في العمل، وألححت عليه أن نلتقي في المساء. بعد العشاء، أبلغته برغبتي في إنهاء العلاقة. لم تكن مفاجأة بالنسبة إليه؛ فقد حاولت قطع علاقتي به في مرات سابقة وفشلت المحاولة. كانت رحلاتي المستمرة تعيدنا لسابق عهدنا؛ ننشغل بالعمل ونجني من ورائه بعض الرضا فنعود للقاء كأن شيئًا لم يكن.

أصر كعادته أن نعطي لأنفسنا فرصة للتفكير على أن نلتقي مرة أخرى قبل سفري. أخذ يكرر أنه يحبني، وأن مجرد حديثنا ينقذه من الجحيم الذي يعيشه مع زوجته، وأنه لم يشعر بالارتياح لامرأة

مثلما شعر بالراحة معي. أجبته أني وحدي. لي أم وأب لا تربطني بهما صلة حقيقية اللهم إلا صلة السكن، وأخان مشغولان بحياتهما يساهمان في تمويل رحلاتي عند الحاجة، وحقيبة سفر. قلت إني أحتاج إليه وأشتاق إليه، ولا تكفيني منه لقاءات مسروقة في بيته أو أحضان افتراضية على الإنترنت. قلت إن علاقتنا لن يُكتب لها الاستمرار ما دمت أشعر بالوحدة، وما دمت أعول نفسي بلا سند سوى عملي وارتزاقي البسيط من ورائه. ثم خيرته بين الاحتفاظ بي كحبيبة يعولها ويعتني بها، وبين بتر العلاقة لعلي أجد رجلًا غيره يعولني وينقذني من روتين الحياة مع أبي وأمي.

بعد أيام، أرسل لي إيميلًا مطولًا، يناور فيه ويسعى لاستمالتي بطريقته المعهودة، محاولًا تجنب الصراعات، آملًا في إبقاء الحال على ما هو عليه. كان ذلك في شهر أكتوبر ٢٠٠٥. ما زلت أحتفظ بالإيميل على الهاتف، أفتحه وأعيد قراءته.

«لن أحاول استمالتك أو تغيير رأيك. ولن أغازلك غزلًا عفيفًا أو صريحًا. لكن اسمحي لي يا حبيبتي أن أهنئك على اختيارك لهذا الخاتم المصنوع من الفضة والفيروز الذي لمع في يدك الرقيقة الليلة مثل عين مسحورة. اجتذبني بريقه قبل وصولك إلى باب المطعم. أرجوكِ أن ترتدي قفازاتك في المرة القادمة، فخاتمك هذا يهز قلوب العاشقين. كانت السماء رمادية مثل الجاكيت الذي ضم كتفيك الجميلتين. استقرت يدك التي تحمل الخاتم على صدري وأنت تقبلينني بخفة. ثم استقرت على ظهري ونحن ندخل المطعم معًا، ثم على ذراعي وأنا ألثم خدك في السيارة. في كل مرة يلمع فيها خاتمك يزهو بك قلبي.

كنا أشبه ببطلين في فيلم رومانسي. تقولين إن حياتك أشبه بفيلم. ألا يشبه لقاؤنا المتجدد فيلمًا رومانسيًّا من الطراز الأول؟ ممتن لآلهة الحب؛ لأننا لم نخرج عن النص بالأمس. كنت أتمنى منك حضنًا ولو في السيارة. لكنك اعتذرت بصوتك الذي يهز شغاف قلبي. عندما قلتِ إنك اشتريت لي هدية كي أتذكرك دق قلبي بعنف. وهل نسيتك يا زهرتي البرية، أم تراها هدية الوداع؟ كأن الوداع ممكن بيننا. هدية منك تسعدني لو أنها أتت لتؤكد صداقتنا، لكنها قد تكون إيذانًا منك بأننا لن نلتقي كحبيبين أبدًا وهذا مؤلم. يكفينا أن نقول: وداعًا بالكلمات، أما هديتك فقبولها أقسى لديَّ من أن أتحمل افتراقي عنك».

أجبته في الليلة نفسها برسالة أخبرته فيها بأني أتمسك بقراري، ليس فقط بشأن حتمية إنهاء علاقتنا، ولكن بشأنه هو شخصيًّا. لقد صدقته حين قال إنه يحيا حياة تعسة مع زوجته، حياة يملؤها الخوف والحزن والقلق. يخاف أن تتركه وحيدًا، يخاف أن تموت، يخاف أن يخيم الحزن على صافية؛ الشاهد الأول والدائم على فشل زيجتهما. صدقته في البداية. ثم بدأ الشك يتسلل إلى قلبي. لا يستمر المرء في إتعاس نفسه إلا لو كان يعاني من خلل ما، يستعذب الألم، يكذب على نفسه وعلى من يحب. وبالرغم من أنه بدا إنسانًا متزنًا ناجحًا بالمقاييس العامة، فإنه كان عاجزًا عن تحديد أهدافه بدقة. وكان يتحايل على فشل حياته الزوجية بأشكال مختلفة؛ الولع بالثقافة العامة، متابعة الأخبار في سوريا، تغيير العمل كل فترة، ورفض التفكير في مستقبلنا معًا بوهم أن حياته لن تستقيم إلا في محيط الأسرة.

«أشعر بالحزن والقلق عليك. ثمة أشياء كثيرة مدفونة بداخلك، ربما لا تعرف عنها شيئًا، وهو الأمر المفاجئ الذي اكتشفته بعد عودتي من مصر. إن ما تخفيه بداخلك ينتمي لعالم تنظمه قيم تقليدية لم تتخلَّ عنها منذ وصولك إلى كندا، ثم انتقالك إلى أمريكا وحتى اليوم. أنت يا حبيبي رجل عربي وجد نفسه فجأة مطالبًا بأن يتمرد على تقاليد يثق فيها ويحترمها. صورتك عن نفسك وما تصدره للآخرين عن أفكارك هي صورة الرجل المتمرد، الحداثي. لكنك في الحقيقة ما زلت متمسكًا بأفكار بالية عن الزواج السعيد والأسرة المتماسكة والواجب والأصول. أشعر بتلك الأحاسيس المتناقضة بداخلك وأنت تحدثني عن علاقتك بأمك، وزوجتك، وابنتك. علاقاتك بالنساء مبنية على الصراع بين تقاليد قديمة وموروثة متمسك بها ونمط الحياة الحديثة في أمريكا الذي تدعي أنك تنتمي إليه. أتذكر إحساسك وتعليقك على مواقف كثيرة خاصة بحياتك الأسرية وحياة آخرين، وأرى بها التوتر نفسه.

كل ما أردت أن أقوله لك هو أنك لن تستطيع الاحتفاظ بي وبزوجتك في آن واحد، حتى وإن بدا لك ذلك ممكنًا من الناحية العاطفية. ستظل ترفض علاقتنا إذ تذكرك بالخيانة التي تؤرقك، وستظل تدفعني بعيدًا عنك لأني حرة ولأنك مكبل بأفكارك وقيمك العتيقة. لا رادع لهذا الحب المستحيل سوى الابتعاد والنأي. أنتهز فرصة رحلتي القادمة لكاليفورنيا لأعيد التفكير في علاقتنا. هل باستطاعتي أن أظل صديقتك في السر؟ أشك في ذلك. لقد جعلتني أتصور على مدى أربع سنوات أنك بحاجة لوجودي، وأن حياتك بدوني كانت صحراء، جحيمًا، موتًا. ولم أكتشف سوى الآن فقط

أن هذا كله غير صحيح وأنك راضٍ عن حياتك تمام الرضا، وأنك لا تريد أن تغير فيها شيئًا، وأنه لو كان بمقدورك أن تعيش حياتك من جديد لكررت ما فعلته في سن الثلاثين وسارعت بحسم بعض الأمور التي تضمن لك استمرار زيجتك على نفس المنوال.

يمكنني الآن تخمين ما حدث في تلك الفترة، أنجبت صافية والتصقت بزوجتك التصاق اللاجئ بوطنه الأم. لقد كذبت عليَّ، وخنتني، لن أغفر لك تلك الخيانة ما حييت».

لا أنكر أني لعبت دور الضحية في هذا الخطاب. لم أبكِ ولم أتألم حقًّا، لكني احتلت ليبدو الأمر وكأني حسمت صراعًا ضاريًا مع نفسي. كان لحديثي عن الخيانة وقع شديد على من قال برومانسية تثير الشفقة إنه لا يحتمل هدية الوداع. بعد أيام، وضعته أمام خيارين لا ثالث لهما؛ واجهته بضعفه وجحوده تجاهي أنا التي أحببته وصدقت وعوده الكاذبة. لم يكن بسّام شريرًا في واقع الأمر، كنت أعرف ذلك حق المعرفة. لكنه كان يذكرني بقنديل البحر، يتكاثر دون أن يعي قدرته على التكاثر ويجرفه التيار دون مقاومة. عن عمد تركته يعتقد أن صورته اهتزت في عيني ودفعته لإعادة النظر بشأن علاقتنا السرية. أعود لقراءة الرسالتين على هاتفي وأتذكر كم كان قراري ببتر العلاقة صائبًا، وكم قاربت تلك الخطوة الحاسمة بيني وبين حلم الاستقرار.

عندما عدت من مهمتي في كاليفورنيا، لم أستسلم للعبة التحايل والمماطلة. أمليت عليه شروطي في أول لقاء بيننا: إما أن نحيا معا كحبيبين، وإما أن نفترق. غاب زمنًا، فكر مليًّا وعاد ليقول إنه لن يستطيع التخلي عن زوجته. لكنه يعرض عليَّ الانتقال للعيش في

ستوديو استأجره لي قريبًا من محل عمله الجديد بالمتحف الوطني. بعد تفكير، قبلت العرض. كان حلًّا وسطًا لا بأس به يسمح لي بالاستقلال بعيدًا عن أهلي، ويسمح لنا باللقاء بحرية وانتظام.

هكذا بدأت مرحلة جديدة في علاقتنا، اعتبرت نفسي أثناءها مثل زوجة ثانية بلا زواج. لدينا أصدقاء مشتركون، ألتقي صافية كل فترة، تخمن أني صديقة أبيها، لا يبدو أنها تعارض، أسافر وأعود، يفتقدني، أفتقد دفء بيتي الصغير، لا أحمل همًّا لرأي أبي وأمي وأخويَّ عن شطحاتي المتكررة وفشلي في الزواج. أهتم ببسّام بالقدر الذي يجعله سعيدًا، ويضمن لي حريتي واستقلالي. أبتسم وأنا أتذكر تلك المناورة. كان لابد منها للحصول على ما أريد ولإعادة بناء نفسي ومحيطي الاجتماعي.

***

تحين مني التفاتة للناس من حولي فأجدني الوحيدة المبتسمة في هذا المطار الغريب. تتسع الابتسامة حين ألمح ليندا ليندا قادمة من بعيد بصحبة عاليا. عاليا ما زالت تتكلم. أما ليندا ليندا فقد وضعت على عينيها نظارات شمس كبيرة واحتفظت بجواز السفر الأمريكي في يد ترفعها قريبًا من صدرها، يزينها خاتم ثمين ماركة «Versace» وأساور ذهبية ضخمة وحقيبة يد «Louis Vuitton» أصلية لا تقل قيمتها عن بضعة آلاف من الدولارات. تبدو مثل سيدة أعمال، وتبدو عاليا وكأنها سكرتيرتها. بعد ثوانٍ من وقوفهما في الطابور انفصلت ليندا ليندا عن الجموع، واتجهت صوب المضيفة الواقفة خلف الكاونتر. بعد حديث قصير، سمحت لها المضيفة بالدخول في

الممر المؤدي للطائرة. لم تلتفت وراءها، لم تلقِ التحية على عاليا التي ظل بصرها معلقًا بظهر ليندا ليندا حتى توارت عن الأنظار. زاغ بصر عاليا بحثًا عن فريسة جديدة، ولما لم تجد أحدًا تتحدث معه، أخرجت الموبايل وهاتفت شخصًا، قد تكون ابنة عمها المتزوجة حديثًا في تورونتو.

كل ركاب الدرجة الاقتصادية مدعوون الآن لركوب الطائرة. أغلق هاتفي وأنخرط في الطابور. يأتي موقعي وراء الجد اللطيف الذي يهز رأسه بود عندما يراني. ثم تلحق بنا السيدة السمينة ومن خلفها الشاب ذو السماعات الخضراء كأنهما متلازمان بلا مبرر واضح. في الطائرة، أمر بجوار ليندا ليندا وأراها قد استبدلت بالنظارة السوداء قناعًا ورديًّا من الساتان يغطي عينيها فتبدو مثل الأميرة في حكاية الجميلة النائمة. يميل رأسها قليلًا باتجاه الجار؛ الطبيب الأنيق الذي ما زال يطالع كتابه. يجلس الجد في الصفوف الأمامية مباشرة بعد درجة رجال الأعمال، وأجلس أنا على مقعد بجوار الممر خلف الجد بصفين أو ثلاثة. جارتي غائبة، تركت حقيبتها تحت المقعد الملاصق للنافذة واختفت.

أضع حقيبتي على المقعد الشاغر بين مقعدينا وأنتظر. ينبئني حدسي أن عاليا هي جارتي، وأحسب ألف حساب لثرثرتها. تأتي فعلًا بعد قليل. تتهلل أسارير وجهها وكأننا تعارفنا منذ زمن، وتجلس في مكانها بجوار النافذة. تنظف يدها بالكحول وتفتح حقيبتها وتفتش فيها عن شيء لا تعرفه، تضعها تحت المقعد ثم تعود لتخرجها وتفتحها من جديد. تعدل وضع المسند خلف رأسها، ثم تتركه يسقط وراء ظهرها، وتعود وتسحبه وتضعه فوق حقيبتي على المقعد الفاصل بيننا.

لا تتحرك الطائرة إلا وتكون عاليا قد أمسكت بطرف خيط الحديث، هذه المرة معي، تعيد غزل الحكاية وأنصت لها باهتمام مفتعل. تسألني إن كنت أقيم في ديترويت، وأجيبها بالإيجاب موضحة أني من ديربورن تحديدًا على بعد نحو ربع ساعة من ديترويت. أوضح أن الناس يخلطون بين المدينتين لقربهما الجغرافي لكنها تقاطعني لتقول إنها ستقضي أسبوعًا مع سلمى صديقة الطفولة قبل العودة إلى القاهرة. تقول إن سلمى هاجرت منذ سنوات، لم تتزوج بعد، أستاذة بجامعة ميتشجن آن أربر. أخبرها بأن صديقتي لينا تعمل بالجامعة نفسها، وأنها ستكون بانتظاري في المطار.

تسألني عن زوجي، أخبرها بأنه يعمل مديرًا لمعرض سيارات فورد، وعن نفسي، أجيبها أني مصورة فوتوغرافية. وأني سورية من أصول حلبية. تطلق آهة إعجاب وتقول باللهجة المصرية: إخواتنا وأجمل ناس. أشكرها وأسألها بدوري عن ماتيو. تضحك ضحكتها الصادحة وتعتذر؛ لأن صوتها كان مرتفعًا في المقهى. هل ضايقتك؟ لا تنتظر إجابة. تقول إن تيو زوج رائع، وإن حياتهما مستقرة بين الإسكندرية وديروتا. يقضي جزءًا كبيرًا من العام هناك للإشراف على مزارع العنب، ويعود ليستقر في الإسكندرية في الشتاء ثم قسطًا من الربيع. وهي تحاول أن تقضي جزءًا من الخريف معه في المزرعة. لم ينجبا بعد، أمه تلح وأمها أيضًا، لكنهما يخططان للإنجاب قريبًا. هو يريد للطفل أن يولد في شهر ديسمبر سنة ٢٠٢١، في الكريسماس تحديدًا؛ ولذا لزم التخطيط. تضيف:

«ماتيو مهووس بالأعداد والأرقام. يجري حسابات سريعة في ثوانٍ، وتنشط ذاكرته كلما ارتبط الأمر بالأرقام. تعداد ضحايا

حادث، تقييم سعر العنب ومقارنته بأسعار الكروم في توسكانيا، أعداد المصابين بالفيروس والناجين منه. هذا النوع من الحساب. لو سمع جملة تحتوي رقمًا لا يستطيع حسابه أو تخيله ينفصل عن الحديث تمامًا كأني لا أكلمه. ذات مرة، قلت له في أثناء مشادة حمقاء بيننا إن مائة سنة ضوئية تفصلني عنه. تصوري أنه قضى أسبوعًا كاملًا يقرأ على الإنترنت عن كيفية حساب السنوات الضوئية وأثرها على الأرض والكواكب، ويحللها لوحدات صغرى تصل لأيام وساعات وثوانٍ. هذا عيبه الوحيد، ما إن يسمع رقمًا حتى يروح فيما يشبه الغيبوبة. وحين يصل لحل معادلة حسابية يشعر بالسعادة والرضا وتهمد قواه كمن خرج لتوه من حلقة ذِكر. تعرفين ما الذِّكر؟ انظري! هذا هو (تريني صورته على الهاتف)، انظري كم هو أنيق. برغم أن الصورة أخذت في يوم عمل. البيت يظهر في الخلفية. قمنا بطلاء الحوائط مؤخرًا وتغيير لون النوافذ. طلبت منه أن يدهنها باللون الأزرق، لتذكرني بالإسكندرية (تبتسم). آه، وهذه هي محطة ديروتا سان نيكولو. لم تتغير كثيرًا عن الماضي. وهذه صور أخرى للبيت. رائع، أليس كذلك؟ أمه وشقيقه الأصغر يقيمان معنا. ومعظم العائلة الكبيرة مقيمة في نواحي ديروتا. فيما عدا الهوس بالأرقام أعتبره زوجًا مثاليًا. تعلم الإنجليزية من أجلي، وتعلمت الإيطالية من أجله، وحياتنا لم تكن لتنتظم لولا أن كلينا يحب عمله، وطبعًا لولا وجود الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي. نقضي نصف الوقت معًا على سكايب وفيستايم، والنصف الآخر في المطارات (تضحك)».

لم أقل لها إن لديَّ بعض الأهل في مونتريال حيث ولدت، والبعض الثاني في ديترويت وديربورن، والبعض الثالث في أماكن

متفرقة من العالم؛ ألبيرتا، كاليفورنيا، حلب. لم أقل إن معظم أصدقاء الطفولة من أبناء الجالية السورية باتوا يعيشون في الشتات الأكبر؛ منهم من تزوج وأنجب واستقر في مكان ما في غربي أمريكا، ومنهم من عاد إلى الشرق الأوسط واستقر في مصر أو في الخليج. لم أقل إن أبي توفيَ بعد اندلاع الحرب في سوريا بعامين إثر أزمة قلبية حادة، وإن أخويَّ استمرا في العمل بمجال صناعة السيارات وثقلت عليهما حياتهما المكتظة بالأولاد والمسئوليات بعد انهيار الصناعة في ٢٠١٠. لم يتبقَّ لي في ديربورن سوى بسّام وأمي وبعض أبناء العمومة لا نزورهم إلا في المناسبات. لم أقل إن أمي باعت بيت سبرينج ويلز بعد أن جاوزت التسعين، ووزعت المال علينا بالتساوي، وانتقلت للعيش في دار للمسنين.

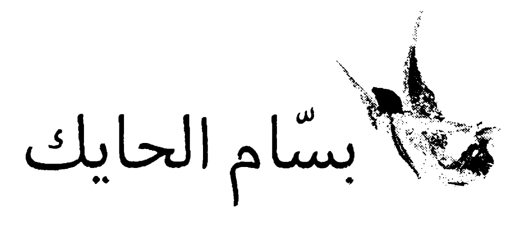
لم أقل شيئًا من هذا لجارتي الثرثارة. لكني أفقت من ذكرياتي وهي تقول: سكايب وفيستايم. تنتقل فجأة للحديث عن قناة «إم بي سي» التلفزيونية، وعن عملها الذي بات يعتمد اعتمادًا كليًّا على الإنترنت، وعلى اليوتيوب والمواد الثرية التي يبثها غير المحترفين. أؤمِّن على كلامها بهزة من الرأس، تحاول مرة أخيرة استدراجي لفخ الحديث، لكن رقبتي تؤلمني وأعتذر لها معربة عن رغبتي في الإغفاء لدقائق قبل هبوط الطائرة.

أغمض عينيَّ وأنا أفكر متى وكيف أصبح سكايب حيويًّا لكل المتزوجين عن بعد، ولكل من له صديقة أو صديق خارج الزواج. أفكر أن محاولات التحرر يمكنها أن تتخذ أشكالًا ومسارات كثيرة، لا تكون لنا سيطرة عليها بالضرورة. قد تأتي نتيجة لتطور تكنولوجي ما، مثل دخول الرسائل الهاتفية في حياتنا أنا وبسّام في مطلع عام

٢٠٠٠، ومثل اعتماد عاليا وماتيو على سكايب للتواصل اليومي وربما أيضًا لممارسة الجنس الافتراضي. أتخيلها وهي ترسل له صورًا عارية بعد خروجها من الحمام، شعرها مجعد ينسدل على الكتفين ويبللهما. تدعوه ليلحق بها في الفراش، يتسع الفراش أميالًا وأميالًا ويضيق بوحدة كل منهما أمام شاشته.

أغفو قليلًا، وعندما أفتح عينيَّ أري ديترويت وهي تتماوج عبر نافذة الطائرة. لم يمر وقت طويل كما توهمت، أغمضت عينيَّ ربع ساعة فقط. مَرّ الزمن كما يحدث في السينما، قفزًا بين مشهدين. أنظر من خلال الكرسي الشاغر بيني وبين عاليا عبر النافذة الضيقة. لوهلة تظهر صورة المدينة وكأنها لوحة ألصقت بالزجاج واحتلته كاملًا، ثم تعود الطائرة لتحلق بموازاة الأرض فتبدو المدينة وكأنها رقعة مستوية من تصوير جوجل. ديربورن تشبه مونتريال أو القاهرة في الليل، أضواؤها المتناثرة وسواد النهر العريض الذي يخترق المدينة مثل ثعبان يذكراني بسان لوران أو النيل. تبتعد الطائرة عن مجرى النهر فتظهر الأنوار المبعثرة على الطرق السريعة ومربعات المساكن المضيئة والمتنزهات العامة المعتمة. لا فرق بين المدن من أعلى، كلها متشابه. نقاط ضوء كثيرة ومناطق داجنة، مربعات وطرق مستقيمة تشق المدن مثل سكين. أحيانًا تظهر مساحة هائلة من الأرض السوداء. حقول ووديان ومزارع.

تقترب الطائرة من مهبط الطائرات فتسأل عاليا: هل وصلنا؟ أجيبها باقتضاب: على وشك. وبينما نحن في سبيلنا للهبوط، أفكر أن كل شيء هناك على هذه الأرض متناهٍ في الصغر والضآلة، مخلص في عاديته. وكل شيء لا يطير أو يحلق ضعيف واعتمادي ومثير للسخرية.


بسّام الحايك

تقود داينا سيارتها باحتراف. تحرص على استخدام الإشارات والالتفات للزوايا العمياء قبل تغيير الحارة المرورية. تراقب المرآة العاكسة بين الحين والحين؛ للتأكد من أنها لا تسد الطريق السريع إلى اليسار. تضع يدًا واحدة على المقود، وباليد الأخرى ترشف القهوة من كوب معدني ذي غطاء من البلاستيك الأسود السميك. تكتفي بالشراب عن الحديث وتربت على ساقيَّ بين آن وآخر، تبتسم بود وتبدو عليها دلائل الحماسة كما لو أننا نقوم برحلة سياحية في بلد أجنبي. الغريب أننا نقطع الطريق نفسها مرات كل عام، نزور الأهل في وندسور ونواحيها، ونعود في نهايات النهار أو في مساقط الليل. لا أدري مصدر حماستها هذه المرة؟ ألأنها رتبت الرحلة لعاليا وأنقذتها من ورطة محققة؟

تقول فجأة إن هواءً مختلفًا يحيط بكندا، كما لو أنه يحميها من شرور العالم. أوافقها الرأي وأرشف من كوبي رشفة قهوة ساخنة وألوذ بالصمت. بعد برهة تؤكد: كندا بلد آمن، وأهلها طيبون. أجمل ما فيهم اللطف ودماثة الخلق. لا نجد مثيلًا لذلك في أمريكا. يذكرني حديثها بسنوات مونتريال السعيدة، وأكرر عليها ما سمعته مني مرارًا: لولا أني لم أجد عملًا مناسبًا في مونتريال ما هاجرت من جديد. ثم أضيف: تذكرين الدراسة التي أثبتت أن العرب هم

أكثر الشرائح التي تعاني من البطالة في كندا لأسباب عرقية وثقافية؟ في المقابل فرص التوظيف كثيرة في أمريكا.

أردت الإسهاب في هذا الموضوع، لكنها لم تعرني أذنًا صاغية فلذت بالصمت. لم تتوقع مني تحليلًا لحال العمل والتوظيف في كندا مقارنة بأمريكا. كانت فقط تعبر عن امتنانها لكوننا نعيش على الحدود بين البلدين، ولأن بإمكاننا أن نحظى بما يمنحه البلدان من رفاهية التنقل والعمل للمهاجرين من أمثالنا.

- ليتنا نعود. أقصد إلى مونتريال. ما الذي يمنعنا؟ نبيع البيت هنا ونرحل.

- البيوت هنا أرخص يا ديدي.

- ولم لا؟ أحببت مونتريال منذ زمن، وأحببت أهلها. وسنكون قريبين من صافية.

- بعيدًا عن أخويك، وهذا هو الأهم.

- مروان خدمَك كثيرًا. لا تكن جاحدًا. تستطيع أن تبحث عن عمل في أحد فروع فورد بكيبك.

- اطمئني يا عزيزتي. كل شيء سيكون على ما يرام.

***

تستهين بالتغييرات الكبرى. لا شيء يمنعها عن جمع الأغراض والرحيل طالما عنّ لها السفر. تختلق الأسباب وتزداد حماستها كلما تحسست مني قدرًا ولو ضئيلًا من المقاومة. أكتفي بالصمت،

معولًا على خفوت هواجس الإبدال والإحلال التي تلازمها منذ سنوات، والتي أعتبرها نتيجة طبيعية لهجرتها الأولى من كندا إلى ديربورن. أجمل ما في داينا طاقتها للحياة، وأسوأ ما فيها انتهازيتها وتلاعبها بمصائر الآخرين. أما أنا فكلما تقدم بي العمر شعرت بأن طاقة الموت تتغلب لديَّ على كل ما عداها، باستثناء دأبي في البحث عن بريق أمل في وجه فتاة مليحة.

أحاول تغيير الموضوع. أسألها عن عاليا وتفاصيل رحلتها لوندسور. أثق في أن داينا تعرف تفاصيل حياة كل من تلتقي بهم. ترسم للغرباء بورتريه نفسيًّا في عقلها وتروح تختلق القصص عنهم وعن مشاعرهم، مؤملة نفسها أن تنتقل هذه المشاعر بسحر الفن من وجوههم إلى صورها. لا شيء في هذه الحياة يهمها قدر التصوير. تكاد الكاميرا أن تكون عينًا ثالثة، وأزرارها امتدادًا لأصابعها.

اتفق الجميع على اللقاء ظهر اليوم؛ الأربعاء، في وندسور. قالت داينا بخبرتها في تنظيم الرحلات إن الطريق من آن أربر لوسط مدينة وندسور لن تستغرق أكثر من ساعة بالسيارة واقترحت أن نتناول وجبة سمك في مطعم «ستيف آند إديز» الشهير بأطباق السمك والبطاطس. ستأتي عاليا وصديقتها سلمى بصحبة لينا، وستنضم إلينا ابنة خالتها المقيمة هناك. بعد ذلك سنقوم بزيارة المدينة قبل توصيل عاليا لموقف الباص المتجه لتورونتو. وافقت عاليا بترحاب على اقتراح السمك، وأعربت عن امتنانها الشديد لتلك الجماعة اللطيفة من الأصدقاء ومنهم من صار «زي الأهل وأكثر» والذين لولاهم ما استطاعت تخطي الأزمة بعد أن اضطرت لتأجيل رحلتها للقاهرة وتغيير وجهة سفرها.

اقترحت داينا أن نتحرك من ديربورن بسيارتها، على أن يلتقي الجميع بعد عبور نفق ديترويت–وندسور في موقف سيارات ماكدونالدز، الساعة الواحدة ظهرًا. نظمت داينا كل شيء، واعتنت بالتفاصيل ومراجعة فروق التوقيت. سوف تعبر عاليا الحدود الأمريكية - الكندية عبر النفق بالسيارة بدلًا من السفر بالطائرة، ثم تستقل الباص من وندسور لتورونتو في الرابعة، لتصل لمطار لستر بيرسون في التاسعة والنصف مساء، ومنه تستقل الطائرة المتجهة للندن، ثم من لندن تسافر لميلانو ومنها لديروتا بالقطار. تستغرق الرحلة ستًّا وثلاثين ساعة. لكن ما العمل؟ ماتيو محبوس في المزرعة، وعاليا لا تصدق أنه مصاب بالفيروس. له ابن عم في حال خطرة، والأنباء تقول إن المئات يموتون يوميًّا في هذا البلد المنكوب، لكنها لا تصدق. المأساة تحدث دائمًا للآخرين. أما ماتيو فهي موقنة بأنه يعاني من برد شديد كعادته في نهاية الشتاء: احتقان في الحنجرة، وتكسير في العظام، وسعال، دون ارتفاع في درجة الحرارة. تريد أن تبقى إلى جواره وتخشى إن هي عادت إلى الإسكندرية أن يصبح لقاؤهما مستحيلًا.

حكت لي داينا عن التعقيدات التي تواجهها عاليا لتغيير مسار الرحلة وموعدها. ثم انبرت كعادتها للتطوع بتحسين الأوضاع ومواجهة معوقات السفر مع أخذ الاحتمالات كافة في الاعتبار. وجدت داينا رحلة من تورونتو للندن، ومنها لميلانو بسعر مناسب. في التوقيت نفسه تقريبًا، أعلنت شركة القطارات الكندية «فيا ريل» عن وقف رحلاتها بين المدن الكندية اعتبارًا من يوم الجمعة الثالث عشر من مارس، وأعلنت شركة الطيران الكندية وقف الطيران الدولي في أول إبريل.

هكذا اقترحت داينا اصطحاب عاليا إلى وندسور بالسيارة؛ حيث يمكنها أن تستقل الباص لمطار لستر بيرسون بتورونتو. وانتهى مجلس شورى السيدات الأربع إلى ما نحن بصدده الآن. بعبورنا النفق تحت نهر ديترويت، نكون قد عبرنا الحدود بين أمريكا وكندا والتي تقع على بعد ربع ساعة من بيتنا في ديربورن. قبل أيام، أرسلت داينا إيميلًا تفصيليًّا بخطوات الرحلة للسيدات، وأغلقت الكمبيوتر ونظرت إليَّ بارتياح وهي تقول: كل شيء سيكون على ما يرام.

***

- لسنا على ما يرام يا بسّام! أتظن أننا أفضل حالًا في أمريكا؟ ترامب يشعلها نارًا قبل السقوط، ولا أحد يتكهن بمصيرنا ولا بما قد يفعله أنصار الفاشية البيضاء لو أعيد انتخاب «البرتقالي».

- «المختار» لو سمحتِ (نضحك). يكاد المرء يظن أننا في العالم الثالث.

- حبيبي، هذه عبارة ساذجة. انتبه لكلامك، تلك المبالغات غير صحيحة. ثم إننا لم نعد نستخدم العبارات الاستعمارية منذ أزمنة بعيدة. عالم أول وعالم ثالث! هراء!

بعد يومين من هبوطها في مطار ديترويت، جاءت عاليا لزيارتنا بصحبة صديقتها سلمى وصديقتنا المشتركة لينا. التقين مع داينا في مقهى غير بعيد عن معرض السيارات. كانت سلمى تفكر في تغيير سيارتها الفورد إسكورت القديمة وشراء «إس يو في إكسبلورر» موديل ٢٠٢٠. أقنعتها داينا ولينا بالاستعانة بخبرتي في الشركة والإفادة من التخفيضات الهائلة التي يتيحها معرضنا على سيارات

العام الفائت. حللن على المعرض بلا سابق موعد وكأنهن في رحلة مدرسية بقيادة داينا، ورحن يتفحصن السيارات ويحدثن جلبة في أنحاء المكان وصوت عاليا يعلو ويحتل الفضاء بأكمله. يتقافزن من سيارة لأخرى، ويستفسرن من مندوبي المعرض عن مواصفات كل سيارة وثمنها.

بعد نصف ساعة من المباحثات والمفاوضات والأخذ والرد على الطريقة العربية، اتفقنا أنا وسلمى على موعد آخر لتحديد نوع السيارة التي تريد شراءها بما يتناسب مع ميزانيتها وقدرتها على التقسيط. ثم خرجنا جميعًا في جولة في منتزه «لابير» غير بعيد عن المعرض.

كان الجو صحوًا على غير العادة، ودرجة الحرارة تجاوزت عشر درجات فوق الصفر. رجل وحيد بصحبة أربع نساء من سوريا، ومصر، وأمريكا، وكندا. تنفصل داينا عن الجماعة بين الحين والحين وتعود إلينا لتلتقط صورًا شخصية وأخرى للناس في المنتزه. تختلي بلينا لدقائق، تتناجيان سرًّا فلا أسمع ما يقولان. أنشغل بالحديث مع عاليا عن مصر، أو بالأحرى بالاستماع إليها وإلى تفاصيل رحلتها إلى تورونتو ثم إلى آن أربر؛ مغامرتها في ديروتا وزواجها بإيطالي من غير ديانتها، زيارتها لبلدة جدتها التي تدعى طنطا بصحبة ماتيو، ثم فرح ابنة عمها في تورونتو وزيارتها لسلمى صديقة الطفولة في آن أربر. يتطرق الحديث للأوضاع السياسية في مصر، أسألها بتحفظ فترد باقتضاب. تقول إن الأوضاع مستقرة، ولكن بلا مجال عام وبلا سياسة.

ثم تقرر أن تصف لي إحساسها في زمن الثورة. كانت في إيطاليا وخافت أن تعود لمصر. ظلت تتابع الأخبار وتحادث أهلها يوميًّا،

تقرأ الصحف وتشاهد القنوات العربية والأجنبية أولًا بأول، وتكتب تحليلًا للأحداث كجزء من التدريب على إعداد البرامج الإخبارية للتلفزيون. كان أمرًا عجيبًا، تقول، أن تلتقي حبيب العمر في هذا التوقيت بالذات، في أثناء فترة التدريب في إيطاليا، وأن تعود به إلى الإسكندرية في نهاية ٢٠١١، وأن تقدمه لأهلها على أنه خطيبها. مسيحي يطلب يد فتاة مسلمة من أسرة موسرة (أصلًا من أرياف طنطا، لكنهم ينكرون الأصل الريفي) والأسرة توافق بلا تردد؛ شريطة أن يعلن ماتيو إسلامه، فيفعل ويتزوجان مرتين؛ مرة في الإسكندرية، ومرة ثانية في ديروتا.

كل هذا، تخيل معي، يحدث لي في ٢٠١١! كل الأحداث في الوقت نفسه؛ القمع والحرية، القتل والأمل. ثم تأتي أحداث مقتل جوليو ريجيني بعد ذلك بسنوات وتبعاتها. تنقلب الدنيا رأسًا على عقب في إيطاليا. ربما تابعت قليلًا، تقول. وأومئ بالإيجاب، لكني كاذب. أفكر أننا في عزلة عن العالم في شمال القارة الأمريكية. بقدر ما تمتلئ حياتنا بالأخبار المحلية بقدر ما تنقصنا المعلومات والتحليلات عمّا يجري عالميًا. تشير عاليا لحملات المطالبة بالقصاص لمقتل ريجيني المنتشرة على فيسبوك وتويتر، وأعتذر بأني لا أستخدم تلك الوسائل. فتحكي لي قصة الشاب الإيطالي، طالب الدكتوراه في جامعة كامبريدج الذي عثر عليه مقتولًا على قارعة طريق مقفر خارج القاهرة بعد أيام من اختفائه. تلوم القتلة وتلوم الحكومة الإيطالية على تهاونها. ثم تتوقف عن الكلام وتتلفت حولها. تصيح ردًا على سلمى التي تومئ لسيارة «مَستانج» حمراء: بلا شك، رائعة! ثم تلتفت نحوي وتقول: سيارة سبور أنسب لسلمى من «الإس يو في»، ألا توافقني الرأي؟

لا أسعى للخوض في السياسة مع غرباء، لكنها ورطة أنقذتني منها سلمى حين نادت صاحبتها الثرثارة. عندما خرجنا للنزهة، أخبرتني سلمى في معرض حديثها عن نفسها أنها عُينت مدرسًا بعقد محدود بجامعة ميتشجن آن أربر منذ عام واحد فقط، ولما سألتها إن كانت لدى زوجها سيارة، أجابت أنها غير متزوجة. فيما عدا هذا، ظلت صامتة معظم الوقت، لا أعرف فيمَ تفكر. صمتها في مقابل ثرثرة عاليا يقربني منها. أفكر أنها لا تتجاوز الثلاثين بأي حال، وأنها تقريبًا في عمر ابنتي هَنا. تناسبها بلا شك سيارة سبور ببابين، وليس سيارة إس يو في كبيرة كتلك التي تحرص على اقتنائها العائلات الأمريكية. بعد برهة من الصمت، انفصلنا عن المجموعة ودخلنا دغلًا من أشجار السرو والصنوبر، ورحنا ننصت لتكسر أوراقها الجافة تحت أقدامنا. سألتها عن أبويها فأجابت أنها من أسرة أمريكية مهاجرة. الأب جزائري والأم مصرية. التقيا في القاهرة في مطلع التسعينيات ووقعا في الغرام. تراني متعجبًا من وجود جزائريين في مصر فتقول إن الحرب الأهلية دفعت بالكثيرين للشتات.

أستزيدها فتقول: ولدت في القاهرة عام ١٩٩٢ وهاجرنا بعد مولدي ببضع سنوات بفضل عمي. أمي وأبي ما زالا يقيمان في أوستن تكساس. أعتبر نفسي مصرية - جزائرية - أمريكية، بهذا الترتيب. مصرية لأني ولدت بمصر، جزائرية من ناحية الأب، أمريكية الجنسية. تقول إن أهلها منذ أن هاجروا لم يسعوا لتجديد جواز سفرها المصري أو الجزائري، ولم تزر أيًا من البلدين منذ رحيلها عن مصر. لكنها تذكر زيارات الصيف حين كانت تلعب مع عاليا بنت الجيران التي تكبرها بسنوات تحت تكعيبة العنب في بيت

جدها بطنطا. وتذكر فناء مدرسة سانت آن الفرنسية بحي الظاهر، وممراتها المشمسة، والبلاط النظيف الذي كانت الراهبات تباهي به مدارس السكاكيني المجاورة. تقول إن أباها يملك في أوستن دكانًا لبيع أنواع الجبن المستوردة من أوروبا وفرنسا، ويبيع أيضًا أفضل الخمور الجزائرية التي تصله مهربة عبر الحدود الكندية. أما أمها فسيدة منزل، تهوى تجهيز المأكولات الشرقية وتبيعها عبر صفحتها على فيسبوك لأفراد الجالية العربية ولطلاب قسم اللغة العربية بجامعة أوستن تكساس.

تسألني سلمى إن كنت قد زرت مصر، ولما أجيب بالنفي، تتدخل عاليا التي كانت قد لحقت بنا وتصيح غير مصدقة: إزاي ده؟ مصر أم الدنيا! ما شربتش من نيلها؟! تضحكني لهجتها فأبتسم وألوذ بالصمت. بعد قليل، انحرف يسارًا بعيدًا عن السرب وأتوه عنها وعن سلمى في ممر ضيق بين الأشجار. أي دنيا؟ دنيانا هنا في شمال أمريكا؟ على بعد آلاف الأميال من عالم انقطعتُ عنه منذ ما يقرب من أربعين عاما؟

منذ هروبي من سوريا في عام اثنين وثمانين، ظلت خيالات مجزرة حماة تلاحقني في نومي وفي يقظتي. ما يقرب من شهر كامل من القتل والتدمير والخراب تركت ندوبًا في الروح لا تندمل. رأيت النازحين إلى حلب وبعضهم من عائلتي وأقربائي يحكون عمّا حدث لهم ولذويهم. ظلت الأخبار تهبط علينا على مدار الشهر مثل براميل الليل، كأننا صرنا بين عشية وضحاها في وطن غير الوطن. الحرب مع إسرائيل والمعارك التي خاضها النظام السوري على أرض لبنان، تحولتا لعنف غير مسبوق ضد الداخل على هيئة مذابح.

وكيف لشاب مثلي أن يقاوم ذكرى المذابح والحروب الأهلية وهو الذي عَبَر سنوات الشباب الأولى نشطًا في حركات اليسار السوري واللبناني حالمًا بتحقق الأفكار الاشتراكية وحلم عودة الفلسطينيين إلى أراضيهم؟ ويلات العنف بالداخل لا قبل لنفسي بها، أستعين عليها بالنسيان، بالهرب، يرعبني الموت بقدر ما يجتذبني ويدوخني في دوامة التفاسير والتأويلات. تبقى الذكريات حاضرة، من تركوني ومن تركتهم.

أتلهى مدعيًا أن أمورًا أفظع تحدث في مناطق أخرى من العالم. أصنع من تلك الفظاعات قوائم لا أول لها ولا آخر، تتجدد كلما تقدم بي العمر، وتظل واحدة، متشابهة. أعدها قبل النوم وبعد الصحو كي تبدو كندا أفضل، أو أمريكا، أو أي مكان آخر لم أشهد ويلاته رأي العين، لم أرَ ضحاياه ولوعتهم على فقد أحبائهم؛ أطفال ونساء وشيوخ وشباب في عمر الزهور. حتى عندما قرأت عن تاريخ الأمريكتين في الكتب واتسعت عيوني دهشة وذعرًا من كوارث التطهير العرقي الذي تعرض له السكان الأصليون، لم أشعر بغلاظة الموت كما شعرت به في سوريا. بالقطع لأني لم أعاصر تلك الحروب. العنف المشهود بين أبناء الوطن الواحد يجعل للموت رائحة العطن. تفوح من يد أخ قَتَلَ أخاه، جار صرع جاره، رفيق ذبح رفيقه. نتذكرها نحن العرب حين نلتقي. نظرة واحدة في العيون تجعلنا ندرك من نحن وماذا نعرف عن بعضنا البعض، نحن الهاربين أو الناجين، حتى من لم يشارك في القتل والدمار، نظل منكوبين بقتلانا وجرحانا ما دمنا أحياء.

أرد على السؤال دون كلام: لا، لم أزر مصر يا عاليا ولم أشرب من ماء نيلها. في الواقع لم أخرج من شمال أمريكا منذ عام اثنين

وثمانين. أتحرك في محيط جغرافي ضيق وفي نطاق أضيق من الأهل والأقارب. أحب سوريا عن بعد، أحب طفولتي وشبابي، ذكرياتي البعيدة في ربوع طفولتي بحي البلّاط. الحي الذي تعرض للقصف لسنوات متتالية وظلت مساكنه، أو ما لم يتهدم منها، بلا كهرباء وبلا مياه للشرب. تسقط براميل النيل المتفجرة فتدمر شارعًا أو حارة، وتنهدم البيوت على سكانها. صار الناس يصنفون على أنهم إما شهداء، وإما جرحى، وإما نازحون. تسرب إلينا المشهد عبر قنوات يوتيوب بعد سنوات من تعرض الحي للقصف. أتذكر أفراد أسرتي الموسرة بحي البلّاط وبيتنا العربي القديم بفنائه الداخلي والدرج الصاعد إلى السطح. أعلم أنه ظل صامدًا إلى اليوم وأن أسرتين من أبناء عمومتي مستقرتان بالبيت، بينهما علاقات مصاهرة مع فلسطيني مخيم النيرب الواقع على تخوم المدينة. أفراد الأسرتين يعملون بمعامل النسيج أو يمتلكون واحدًا. أتذكر أيضًا جولات الصبا في حلب القديمة وأحياء العزيزية والجلوم، الصاخور وطريق الباب، وأرى الدمار نفسه الذي وقع على حي البلّاط قد طال الأحياء المجاورة كافة. ونحن صامتون أو خانعون أو موتى.

تسألني الطبيبة النفسية التي عينتها وزارة الهجرة لمتابعة حالتي كلاجئ سياسي: من تقصد بكلمة نحن؟ فأجيب: نحن أبناء الوطن الواحد. ثم تخنقني الغصة فأبكي وأكف عن الكلام. تقول بنبرة لا تخلو من التعاطف: تروما المجازر لو لم تقاومها فستنتهي بك إلى الجنون. ستشعر بالذنب لأنك لم تسعَ لتغيير ما حدث أو للقصاص من القتلة. أرى أن تكتب عنها. يوميات، أو مذكرات. المهم أن تكتب. ثم تقول: أنت بحاجة للنضال من أجل شيء، أي شيء؛ كي تستجمع شتات نفسك.

كان اسمها خاطرة، من أصول إيرانية. ترى هل ما زالت تعمل مع المهاجرين السوريين النازحين إلى كندا منذ ٢٠١٦؟ بلغ عدد هؤلاء نحو أربعين ألف لاجئ في ذاك العام. ترى بأي لغة تتحدث مع الآباء والأمهات؟ هل تقول لهم إن الكتابة تساعد على التذكر والتجاوز والحداد؟ وكيف تخاطب أعدادًا غفيرة من رجال ونساء وفدوا إلى كندا وهم لم يحصلوا على فرصة لتعلم القراءة والكتابة بالعربية؟ كيف تجبرهم على تعلم الفرنسية في مونتريال، وهو شرط من شروط الاستقرار والمواطنة منذ ١٩٨٢؟ تقول: المهم أن تكتب. وأتذكر أني كتبت كثيرًا، ولم أكتب شيئا يذكر.

ثمانية وثلاثون عامًا على الهجرة وما زلت أفتقد الناس والأماكن، ناسًا وأماكن هناك، ليس من ألتقي بهم في الشتات وقد تشوهت أرواحهم مثلي. من تأقلموا وصارت لهم عادات هجينة مثلي. أفتقد روائح السوق القديمة وأصوات الناس في الساحات ودعسة القدم على تراب شوارعنا. أفتقد الأهل من الأموات؛ أبي وأمي وأخويَّ عادل وحسين. أحتفظ بصورة لأبي وأمي وهما يحملاني بعد مولدي بعدة أشهر، هي كل ما تبقى لديَّ من أثر. أما إخوتي فقد رحلت دون أن أحمل صورهم. التقيت بعض أفراد عائلة الحايك في أمريكا ودامت العلاقات عبر وسائل التواصل المعتادة زمنًا. الكاسيت، التلفون المحمول، ثم الإنترنت. والبعض الآخر فضل ألا نلتقي ثانية وألا نخوض فيما حدث وما صار. اختلفنا حول تفسير الأحداث، وراعني أن بعضهم أخذ صمتي مأخذ الخيانة. أنا اللاجئ الشريد، لم أنسَ أخويَّ الشهيدين رحمهما الله، ولم أنسَ لوعة أبي وأمي ووفاتهما في غيبتي. داومت على إرسال المال كلما

هبط قريب أو صديق من كندا لدمشق أو حلب. مات من مات، وانقطعت أواصر الرحم بزواجي بكارول واستقراري في مونتريال ثم في ديربورن، وإصراري على عدم العودة مهما كانت الظروف.

لم أحكِ للطبيبة أني عشت قبل مجزرة حماة بأعوام كارثة أيلول الأسود. كنت صبيًّا لم يتعدَّ الثانية عشرة من عمره؛ الابن الثالث لأسرة من ثلاثة أبناء من الذكور تربينا في المدرسة والبيت على أحلام العروبة والوطن الكبير. في هذا المناخ، وبوازع من حماسته لأفكار البعث، تطوع أخي الأكبر عادل وهو بعد في العشرين في فصائل الجيش السوري المساند للمنظمة في الأردن ولقيَ مصرعه في إربد سنة ١٩٧٠. وشارك حسين مع الجيش السوري في الحرب الأهلية في لبنان وسقط صريعًا في معركة زحلة في إبريل من العام ١٩٨١. كنت أستعد في تلك الفترة لاختبارات نهاية العام بكلية الآداب جامعة حلب، وكانت الأماني تخايلني في العثور على عمل في مجال الترجمة أو الصحافة في بيروت. لم يبدأ العام الجديد إلا وشهدنا ويلات القتل الحر بالداخل، بدءًا بمجزرة حماة، ثم مذبحة صبرا وشاتيلا، وانتهاءً بالاجتياح الإسرائيلي للبنان في يونية من العام نفسه. حدث هذا كله في غضون ستة أشهر. كم كانت السماء قريبة، وكم أظلمت روحي وانسدت في وجهي السبل. وماذا يفعل الشاب المتخرج حديثًا من الجامعة في محيط قامع، في بلد قتل أخين وقهر قلب أم وأبٍ آمنا بالعروبة وفقدا من أجلها فلذة كبديْهما؟

لم يأتِ نوفمبر من ذاك العام الأسود إلا وكنت في طريقي إلى كندا. لم تقف أمي في طريق سفري، واختفى أبي في غرفته أيامًا قبل

رحيلي، وساعدني أحد أبناء عمومتي على اقتراض مبلغ صغير من الدولارات مقابل التنازل عن نصيبي في ورشة النسيج التي تمتلكها الأسرة في حي البلّاط. عبرت برًّا من دمشق إلى عمان، ومنها إلى باريس بتأشيرة ترانزيت مزورة، ومن باريس إلى مونتريال. في مطار «ميرابيل» الدولي، مزقت جواز السفر في دورة المياه، ولجأت لضابط الحدود.

في البداية شرعت في الكتابة والترجمة للصحف الكندية العربية بأجر زهيد، وأحيانًا بلا أجر، بالتزامن مع تدريس اللغة الفرنسية لغير الناطقين بها في مراكز مساعدة اللاجئين المنتشرة في مونتريال. كتبت حول العنف دون أن أتناوله بشكل مباشر، وفضلت متابعة أخبار الفنون والآداب، الموسيقى والمسرح. لم أكتب عن الدمار والخذلان إلا لنفسي. ربما ضاعت تلك الدفاتر القديمة التي نصحتني الطبيبة بتدوينها. وربما عثرت عليها المرحومة كارول وتخلصت منها. كانت يوميات قريبة الشبه بكتاب قرأته آنذاك لمؤلف عراقي يهودي شهير بمونتريال وشعرت بأن تجربته تماثل تجربتي. كتب نعيم قطان عن مذابح الفرهود في بغداد في مطلع الأربعينيات رواية بعنوان «الوداع يا بابل». حين قرأتها تماهيت مع شخصيته الرئيسية برغم أنه يهودي عراقي متدين وأنا مسلم سوري علماني. بدا لي أننا في الظلم واحد، واجهنا مأساة قتل الأخ لأخيه، وآثرنا الهرب. خذلنا أنفسنا وخذلنا من نحب. أخذت أردد لسنوات: «الوداع يا حلب الشهباء» حتى صار الوداع حقيقة مطلقة لا رجعة فيها. يومًا ما سأكتب عن مشاهد الوداع المتكررة، عن تمدد الوداع في الزمن وتحولاته الشجية، عن تجدده مع تجدد كل

محاولة للهرب. أشعر بأني لن أظل عازفًا عن الكتابة طويلًا، وأعد نفسي بالبحث عن دفاتري في بدروم بيتنا بديربورن لعلي أجد فيها ظلًّا لنفسي من هذا الزمان.

ثم ذكرني الحديث مع سلمى بأن الحروب في المنطقة لم يهدأ أوارها منذ سنين بعيدة. ما يقرب من قرن كامل، قد يكون نصفه الثاني هو الأكثر فتكًا. لم تهدأ الحرب الأهلية في لبنان إلا واندلعت حرب أخرى في الجزائر. عشر سنوات وملايين الضحايا. واستمرت جرائم الحرب ضد الفلسطينيين تحت الاحتلال في غزة وخارجها. ثم في السنوات العشر الأخيرة، حروب ممتدة من سوريا لليمن وأنباء مرعبة عن قمع للمتظاهرين هنا وهناك، ومذابح يندى لها الجبين في قلب الأوطان العامر. حزن مقيم، أداريه بالعمل، وأحتمي منه بمطاردة النساء تارة وبحياة أستدينها من حياة داينا تارة أخرى.

بالطبع لم أكافح من أجل التغيير أو القصاص. كنت مشروع مناضل فيما مضى، لكني لم أعد أحتمل العنف الجسدي والصراعات السياسية، وليست لديَّ أوهام عن احتمالات التغيير. كل ما أردته من اللجوء إلى كندا هو فسحة من الزمن تسمح لي بولادة جديدة وأنا في الرابعة والعشرين من عمري، في مكان على هذه الأرض يحترم كوني إنسانًا عاديًّا، متمسكًا بالعيش، محبًّا للسلام، إنسانًا أعزل وحيدًا وخائفًا.

تضع داينا يدها على كتفي فأجفل. تلتقط لفتتي المفاجئة وتبدو عيناي من تحت نظارة الشمس وكأنهما برقوقتان. تريني الصورة على شاشة الكاميرا وقد افترت شفتاها عن ابتسامة. تعيدني بحركة هينة من يدها للواقع ولمشهد الأشجار الخالية من الأوراق في

نهاية شتاء قارس. تذكرني بأننا وسط الناس، وأني كعادتي انسقت وراء الذكريات ولم أنتبه. نلحق بلينا وسلمى، نسمعهما يتحدثان في شأن من شئون الجامعة. تأمرنا داينا بأن نقف جميعًا متقاربين، تلتقط صورة لي بصحبة السيدات. أفكر وأنا أحملق في الصورة أن أهذب لحيتي قبل موعدي القادم مع سلمى. قالت إنها ستأتي في عطلة نهاية الأسبوع للتعاقد على شراء سيارة.

***

تذكرني عاليا بنورهان، بلهجتها اللطيفة ومرحها الزائد ودهشتها. كل شيء عادي يبدو في عينيها خارقًا. برغم أني التقيتها للمرة الأولى منذ فترة وجيزة فإن انطلاقها في الثرثرة وإفراطها في تصوير التفاصيل والقفز بين الحكايات يشبه انطلاق فتاتي المحبوبة نورهان. سلمى أيضًا فيها من هَنا ومن نورهان شيئًا يقربها إلى القلب. لباقة حديثها وحلاوة صوتها وعزوفها عن الكلام أحيانًا. حين تصمت وتنظر في وجه محدثها، تشع عيناها حيوية ونضارة. تحمل عيناها عبء الكلام كله. ما زالت شابة غضة، شعرها الأسود ينسدل على كتفيها ناعمًا، غزيرًا، تضمخ شفتيها بلون أحمر نبيذي يبرز لون بشرتها الخمري وتضع نظارات شمس كبيرة وقرطًا من الفضة محلى بفصوص الفيروز. وعطرها؟ عطر ليموني ملأ مكتبي الصغير بالمعرض واستقر على الكراسي. حديثنا القصير بالفرنسية أعادني في غمضة عين لأيام مونتريال. نسيت الحديث بالفرنسية منذ انتقلت للعيش في ديربورن. قالت ونحن في نهاية النزهة إني أذكرها بأبيها، له نفس اللكنة. وانقطع الكلام عند هذا الحد.

رجل تجاوز الستين، ينجذب مؤقتًا لفتاة في عمر ابنته، وربما أصغر سنًّا منها ويصارع الذكريات في بارك بارد في ديربورن ذات صباح شتوي. ما هذا الهراء؟ ومتى أكف عن الاحتماء من ذكريات الماضي البعيد بظلال ربيع الفتيات؟

لا عجب أن تلح نورهان على ذاكرتي برغم أن ماءً كثيرًا جرى تحت الجسر. أحاديثنا عن مصر أيام العدوان الثلاثي وعن كيبك أيام زيارة شارل ديجول تعيدني إلى ما نحن فيه الآن من شجون. فلا الكفاح استمر، ولا التاريخ أعاد نفسه كما يقولون في الكتب. تقول إن العرب أكثر تمسكًا بهويتهم في الشتات عنهم في بلادهم. فأداعبها شأن الكثيرِ من الناطقين بالإنجليزية من حولنا: تقصدين الشرق أوسطيين. فتهتف بإصرار: الشرق الأوسط تعبير استعماري. نحن عرب باللغة والثقافة. أصمت وأسأل نفسي: كيف حالك يا بسّام، وكيف حال العرب؟ فيجيبني شيخ جليل: العرب في أسوأ حال يا مولاي السلطان. تتردد هذه العبارة الحزينة في أذنيَّ كثيرًا، وأخاف. نعم، الحال يسوء هناك، ولا مفر من البقاء هنا. اسمعوا اسمعوا، هذه طبوله. هذه بشائره. لكن هيهات. جفت البئر وما عادت طبول صلاح الدين تدق في أي من تلك الأوطان.

***

على دقات المطارق العملاقة التي تعمل على إصلاح جزء متهدم من الطريق السريع، وصلنا موقف سيارات ماكدونالدز. بنظرة سريعة أدركت داينا أن سيارة لينا لم تصل بعد. صفت سيارتنا في مواجهة لافتة الدخول وفكت حزام الأمان، والتفتت بجذعها نحوي. عادت

للحديث عن أمريكا من جديد. أعرف حين يحدث هذا أنها ستبدأ في ماراثون لإقناعي بتغيير نمط حياتنا، وأني سأنصت للنهاية وأكتفي بتعليق بسيط من آن لآخر لمجرد أن تظل قنوات التواصل بيننا مفتوحة. نتفق على تحليل ما يحدث من حكومة ترامب بوصفه أحد تجليات الفاشية الصارخة، ونختلف على ما يجب أن نفعل بصدد تصاعد دعوات التفوق العرقي في أمريكا. أقترح أن ننتظر نتائج الانتخابات؛ فربما فاز الديمقراطيون، وليسوا أفضل كثيرًا فيما يخص العرب من الجمهوريين، لكننا نضمن بعودتهم استقرارًا لأوضاع المهاجرين في أمريكا، وإدارة أكثر حكمة لملفات الصحة والتعليم.

العودة لمونتريال ليست مطروحة بالنسبة إليَّ. داينا تعرف، وتمارس الضغط. أشعر بأنها على استعداد للقيام برحلة جديدة لتغيير روتين حياتنا. تشعر بأني على الرغم من الضغوط متمسك بالبيت الذي اشتريته قبل وفاة كارول بسنوات وما زلت أدفع أقساطه، وبالوظيفة التي تضمن لي معاشًا جيدًا، وبشلة الأصدقاء التي تكونت من حولي بفضل دكان «حلاق الشام» الذي يمتلكه صديق لبناني وتلتقي فيه شلة من جنسيات عربية مختلفة أيام السبت[٢]. العامل الوحيد الذي قد يغريني بالعودة إلى كندا هو اقترابي من هَنا. ولكن من يدريني أنها لن تغير محل إقامتها في المستقبل؟ الشباب من جيلها يتحركون بين المدن والوظائف بسلاسة شديدة نعجز عن تصورها في جيلنا.

---

(٢) بوحي من الفيلم الكندي التسجيلي «كلام رجالة»، إخراج المخرجة المصرية - الكندية نسرين بيكر ٢٠١٦.

- هلق وصلت لينا! شافتنا. يلّا.

أدارت داينا سيارتها وتقدمت باتجاه سيارة صديقتها. لوحت لنا سلمى وعاليا من المقعد الخلفي. وتبادلت لينا حديثًا قصيرًا مع داينا عبر النافذة المفتوحة. تقول لينا إن ثمة تغييرًا في الخطة فزوجها سيتركها ويمضي وستعود هي معنا في سيارتنا. هبطت سلمى وعاليا وشكرتا زوج لينا. نقلنا الحقائب إلى سيارتنا، وظلت لينا وداينا تتهامسان والزوج متجهم قليل الكلام كعادته. ثم ألقى علينا تحية مقتضبة ورحل. ولينا تبتسم وتقول: زلمة مش معقول وحياة الله!

تصالحت لينا مع عادات زوجها بمرور الزمن. لا شيء يؤذي مشاعرها، لا شيء يغضبها. يوم الأربعاء هو يوم عمل عادي بالنسبة إليه. تقول إنه يكره أن يغير روتين عمله لأي سبب من الأسباب. هتفت داينا وهي تعود خلف مقود سيارتها: كمان مش معقول ما يكون عندك سيارة خاصة يا لينا! إمتى بدك تتحرري شوي من غالب ومواعيده لغالب؟ لم تجب لينا عن سؤال صديقتها الاستنكاري. لكننا لم نكد نركب السيارة ونخرج من موقف السيارات حتى انطلقت من هاتف عاليا أغنية مصرية تبدأ بصوت صفير وجيتار تتلوه دقة طبل راقص وأكورديون وصوت المغني يقول: وقت غروب الشمس واقف ع البحر بعيد... أخذت البنات تغني أولًا، ثم اندمجت داينا ولينا في الغناء، وبدا جليًّا أني الوحيد في السيارة الذي لا يتجاوب مع الإيقاع.

اتجهنا صوب المطعم وقد رق قلبي، ونسيت لوهلة أننا في بدايات أزمة طاحنة. نسيت ترامب، والموتى في الصين وأوروبا

وأخبار الوباء المتلاحقة. نسيت أني بعيد عن الدنيا، مستقر فيها، مرتعب منها. أرى كما يرى النائم احتمالات العودة للوراء وتغيير ما تم، الأحلام التي ذابت مع الوقت، ابتعاد الذاكرة الواقعية وشبح الأمنيات المستحيلة يطفو على السطح، خلو الذاكرة من المشاهد العريضة وانسياقها وراء التفاصيل الصغيرة، تلك الأسرار الكبيرة والصغيرة التي أحيا في ظلالها مؤملًا أن تبث فيما تبقى من عمري طاقة تعينني على الاحتمال.

***

قبل أشهر قليلة، كنت أجلس وحيدًا على شاطئ بحيرة ميتشجن حين رأيت كأنما في حلم يقظة أسرابًا من قنديل البحر تسبح في البحيرة. فكرت أنها كائنات تشع طاقة. تعمل بالطاقة. أين تختزنها؟ لا أحد يعلم. وحيدة في البحيرة. تتفتح كالوردة، تنغلق كالسر، بثوب فضفاض يختنق في منطقة التقاء الرأس بالأطراف. تضحك أو تتنفس، لا أدري. شهيقها طاقة، زفيرها طاقة. الحياة تمضي في طريقها وقنديل البحر يتكاثر دون أن يفكر في التكاثر، مثله مثل الأفكار، مثله مثل البهجة التي يشيعها الغناء في سيارة. حين يعاندني النوم، تطوف برأسي أفكار تشبه تلك الكائنات الرخوة في طفوها وانسيابها. في قدرتها على إنتاج الضوء والركون للعتمة. تلك الأفكار التي لا تدعني أنعم بالنوم على شاطئ البحيرة، ولا توقظني تمامًا من سباتي. تظل مشعة في العتمة، راقصة رغمًا عني، وهي تطفو سابحة مع التيار.

***

كان المطعم مكتظًّا بالناس. معظمهم كاد أن ينتهي من تناول وجبته، والبعض وصل منذ قليل وينتظر الطعام أمام سلال الخبز المحمص بالزبد والثوم. تقول داينا، بعد قليل سيخلو المكان لنا. يستقر بنا الحال على مائدة بعيدة عن المطبخ. نجلس أنا وعاليا متقابلين، بجوارها سلمى، بجواري داينا، فيما تجلس لينا على رأس المائدة فتشرف من موقعها على المطعم بالكامل. تنتظر وصول ابنة خالتها المقيمة في وندسور. تمنح ظهرها لأشعة الشمس القادمة من نافذة كبيرة فتحيط برأسها هالة من الضوء، وتسبح من حولها أتربة متناهية الضآلة. تقول لنا وللنادل الذي يأتي مسرعًا إن الدعوة دعوتها، هي المسئولة عن دفع الحساب. يسأل: شيك واحد؟ تؤمن على كلامه: عندي أنا. يومئ برأسه ثم يقترح أنواعًا من الشراب في قائمة الكحوليات؛ منها المناسب للأسماك، ومنها ما يوافق أطباقًا أخرى يقدمها المطعم عوضًا عن السمك. تطلب داينا زجاجة نبيذ أبيض، ويوافق الجميع على تقسيم الزجاجة على خمس كئوس. فتقول: كنت أطلبها لنفسي فقط. نضحك وتتابع العيون الكئوس الفارغة التي يسارع النادل بوضعها أمام كل منا.

ألاحظ في الطرف الآخر من مائدتنا امرأة بشعر أحمر برتقالي مموج تجلس مديرة ظهرها لنا، تتحدث بحماسة مع رفيقها. من بعيد يبدوان في حالة غرام، يتناجيان تارة ويضحكان تارة أخرى. كيف لظهر امرأة أن يكشف سر الحب؟ يتقوس حينًا، ويستريح على ظهر المقعد حينًا، ويبدو مشدودًا للرجل الجالس هناك معظم الأحيان. سترة من الفرو الصناعي لونها أرجواني صارخ معلقة على مشجب بجوار المائدة، والبلوزة السوداء التي ترتديها السيدة، أو

الفتاة، لا يمكنني تحديد عمرها من ظهرها، بأكمام طويلة وبها فتحة غائرة تصل لمنتصف الظهر تقريبًا، يغطيها الشعر أو يكشف عنها كلما تحركت صاحبتها. بحركة من يدها اليمنى، تجمع شعرها إلى اليمين عند التقاء الرقبة بالكتف فيبدو ظهرها مثل بقعة ضوء ناصعة البياض تحت شعر يتوهج كالشمس.

تميل داينا نحوي وتهمس في أذني: غنوجة كتير! أنتبه وأبتسم وأنا أحول بصري عن السيدة صاحبة الشعر الأحمر. أعرف أن داينا تراقبني طوال الوقت، تحمي أرضها المحتلة، فأقول مؤمنًا على كلامها: كتير. بس ما في حدا هون أحلى منك إنتِ يا حياتي. لا تحلو المداعبة إلا بلهجة الوطن الأم، والنكات أيضًا. لقد وقعت في حب داينا حين أضحكتني ووشوشتني باللهجة الحلبية، برغم أن معظم أحاديثنا كانت بالإنجليزية. تمامًا كما أحببت نورهان ولم أنسَ صوتها الصبوح على الهاتف وهي تسألني بلكنة مصرية: صباح الخير يا بسّام، نمت كويس؟ ترى بأي لغة يتحدث هذان الحبيبان؟ وهل تكفي إشارات وإيماءات الجسد لتصل بينهما وترعى حبهما؟ ومن يدريني أنهما متحابان؟ ربما يكونان في بداية الانجذاب، في منتصف الطريق لمرحلة اللهفة، وربما كانت تسعى لاقتناصه كما اقتنصتني داينا.

جاءت زجاجة النبيذ ورشفنا رشفة من الكأس في صحة عاليا متمنين لها رحلة سعيدة. انطلقت داينا تراجع تفاصيل الرحلة مع عاليا، وسلمى غارقة في صمتها كالمعتاد، ولينا تبتسم وعيناها تسرح من آن لآخر في ظهر السيدة ذات الشعر الأحمر. عاد النادل بعد دقائق يشرح أنواع الأسماك المتاحة اليوم والأطباق المصاحبة لها،

واختار كل منا من قائمة الطعام ما يناسبه. تعرض علينا لينا أصنافًا أخرى ممعنة في الضيافة، ودائما توافق على المقبلات التي تقترحها صديقتها دون حرج. تقول إنها لم تتناول بعد طعام الفطور، وتنظر صوبي عاتبة كأني السبب في تجويعها. تداوم على هذا النوع من العتاب، بسبب وبدون سبب، تعطي انطباعًا بأني مقصر في حقها، أو أني لا أرعاها كما ينبغي لزوج أن يرعى زوجته. والحق أني زوج مثالي. ما تريده يتم، وما تقوله قد حصل، وما تفعله بدون علم مني ينزلق على حياتي كنقطة زئبق. هي الصبور، هي المانحة، وهي القابضة. ومن لي غيرها بعد هذا العمر الطويل من اللا-انسجام مع النفس، والإخفاق المتكرر في الاستمتاع بمكاسب الحرية؟ ليس لي غيرها وغير هَنا، وهما متفاهمتان، متحابتان. يكفيني هذا منهما ومن الحياة.

وربما لا يكفيني كل الكفاية. لديَّ مطلب بسيط آخر. أن أقع في الحب أحيانًا، حين نعرض عليَّ المصادفة بنتًا حلوة، أو سيدة جذابة. تأتيني في الأحلام، أو تمنحني في الواقع وقتًا لطيفًا أسعد به. كل ما أبتغيه في الحياة بعد الستين، فضلًا عن عملي وزيجتي المستقرة، هو فسحة من نسائم الأمل وتجدد الوصال.

لا أتصور أني سأكتشف صنوفًا أخرى من كرامات الجسد، لكني أحتاج للغريبة لتقود دفة العلاقة ولو لزمن قصير. أنقاد لها بيسر وبلا مقاومة، محلقًا في سماء الرغبة أحيانًا، ساقطًا في بئر اليأس أحيانًا أخرى. حتى تنتهي العاطفة كما بدأت، بيسر، بلا خدوش ولا ندوب. أعرف أن روحي تنطفئ كل حين وتعود لتزهر مع كل حب جديد، تمامًا كما يحدث للرجل الجالس هناك،

على مائدة السيدة ذات الشعر الأحمر. أتصور أنه متزوج، أو أن لديه حياة أخرى غير حياته تلك مع صاحبته المتلونة. مثله ربما لم أعد أنصت لتأنيب الضمير، ولم أعد أعتذر عن تلك الذنوب الصغيرة. فثمة ذنوب فادحة ارتكبت باسم الفضيلة، باسم الوطن، باسم الدين، لا يرفع أحد إصبعًا لدرئها عنا. أتذكر الدكتورة خاطرة وهي تسألني: من أنتم؟ لو سألتني الآن ما عرفت بماذا أجيبها.

ولطالما ابتعدت مغامراتي قصيرة النفس عن أعين داينا، ولطالما تجنبت مغازلة صديقاتها المقربات، محترمًا قربها مني مخلصًا في رعايتها. أما في شئون القلب والعاطفة، فلكلينا رأي مخالف للآخر. هكذا مرت السنوات العشر من زيجتنا هينات على كلينا. هي حصلت على بيت واستقرار مالي وزوج وابنة بالتبني، وأنا حصلت على زوجة ذكية، جربت الحياة وعركتها، لا تحفر حفرة أقع فيها، تضرب صفحًا عن تلك النزوات البريئة حتى وإن خلت من العفة، ويرضيها من زواجنا أنه ضامنٌ لحريتها واستمرارها في عملها دونما ضغوط مادية تذكر. هكذا أفسر الأشياء وأمنحها قوامًا تستند إليه. لا أطيل التفكير في كونها وصولية حد التبذل، ولا يزعجني منها ادعاؤها السياسي وضحالة أفكارها فيما يخص الشأن الوطني. ابتعد كلانا عن الوطن منذ عقود، فمن أنا حتى أحاسبها على تفاسير تبدو لها منطقية وتبدو لي موغلة في الحماقة؟ أحاول أن أتفهم موقفها ثم يعييني التفكير ولا أعود أفهم شيئًا.

***

انتبهت من شرودي على حركة تنقلات على مائدتنا، لينا تدفع طرف الطاولة بعيدًا بما يسمح لها بالقيام والذهاب للحمام. وسلمى

تختلس النظر إليَّ وتبتسم وكأنما قرأت في شرودي شيئًا أردت إخفاءه، ودابنا وعاليا منسجمتان، تتبادلان الرأي حول أنواع الأسماك وأفضل الاختيارات لوجبة ما قبل السفر. تابعت لينا ببصري وهي تتجه صوب الحمام، تمر بجوار مائدة السيدة ذات الشعر الأحمر، تهدئ من خطوتها قليلًا وتعود أدراجها، عيونها مصوبة نحو الرجل الجالس بصحبة السيدة، يقوم فجأة ويسلم على لينا بحرارة ويتبادلان حديثًا قصيرًا. تمد السيدة ذات الشعر الأحمر يدها بالسلام للينا. يتابع الرجل حديثه القصير مع لينا ثم يجلس. تعود خطوتين باتجاه مائدتنا ثم تتذكر الحمام فتلف عائدة أدراجها صوب ممر ضيق في عمق المطعم وتختفي.

في طريق عودتها من الحمام تتجنب المرور بمائدة السيدة ذات الشعر الأحمر. وما إن تجلس حتى تسألها داينا عن الرجل وصاحبته محط أنظار رواد المطعم. لا يفوتها شيء. تبدو وكأنها لم ترفع عينها عن قائمة الطعام، لكنها في الأغلب تابعتني وأنا أتابع لينا، وأدركت أن ثمة حكاية ما وراء تلك السيدة الغامضة. ترد لينا ببساطة إنه زميل قديم من جامعة وندسور، من مصر. أما السيدة التي بصحبته فلا تعرفها. قدمها على أنها زميلة بالجامعة. اسمها أليس، أو أليشة، وكأنما شعرت السيدة بهمهمة داينا ولينا برغم المسافة بين المائدتين، فإذا بها تلتفت فجأة باتجاهنا وهي تعدل وضع شعرها على ظهرها وتتقاطع نظرتي مع نظرتها برهة من الزمن. يظهر وجه الرجل كاملًا لي، يبدو في مقتبل الأربعين من عمره، مهندمًا متغطرسًا. أسأل لينا: دكتور في أي تخصص؟ ترد: في الإعلام. ما يفسر لي وجوده بصحبة نجمة سينما أو نجمة إعلانات. تضحك

داينا من سذاجة تفكيري. لأن شعرها أحمر؟ تسأل ولا أجيب. يأتي الطعام في تلك اللحظة مصحوبًا بكميات هائلة من البطاطس وتسارع داينا بطلب زجاجة نبيذ أبيض ثانية، وتشرع عاليا في تناول الطعام بلا إبطاء. تخاف أن يفوتها الباص.

تناولنا قهوة وشايًا على عجل بعد أن لحقت بنا سوسن ابنة خالة لينا المقيمة في وندسور لتصحبنا في جولة سريعة بالمدينة. موعد الباص المتجه لتورنتو بعد ساعة ونصف الساعة. لن نتأخر. تحرك بنا الركب في سيارة داينا، وتجولنا عبر طرقات المدينة بموازاة نهر ديترويت. اقترحت سوسن أن نتوقف غير بعيد عن كوبري «إمبسادور» المعلق لتلتقط عاليا صورًا للمكان. بعد ذلك تجولنا في حدائق عامة شاسعة وترجلنا من السيارة عند تمثال «صلوا للسلام» الذي أصرت داينا على أن نلتقط صورة جماعية بجواره. في تلك الأثناء، لم تكف سوسن عن الثرثرة مع عاليا وسلمى. حكت لهما عن ظروف هجرتها لكندا منذ سبع سنوات، قالت إنها أم لثلاثة أبناء مات أبوهم شهيدًا في بداية الثورة السورية، وظلت تسعى للهرب حتى تمكن غالب زوج لينا من تأمين مبلغ الدعم لتسفيرها مع أبنائها عبر تركيا إلى تورونتو، ومنها مباشرة إلى وندسور. قالت إنها تعمل حاليًا في منظمة أهلية كاثوليكية لدعم اللاجئين، وإنها تسعى لإتمام شهادة الدراسات العليا في العمل الاجتماعي. الأولاد الثلاثة بالجامعة؛ الأكبر يدرس الهندسة ويشبه أباه كثيرًا، والثاني والثالث في مجالي الإعلام والعلوم السياسية. تردد لينا: التعليم أهم شي! ما في مجال إلا نعلم أولادنا وهني يكملوا الطريق.

ألتفت من موقعي في المقعد الأمامي، وأنظر إلى النساء الأربع الجالسات في صفي المقاعد الخلفية. عاليا وسلمى تبتسمان لي، ومن ورائهما لينا وسوسن يؤمنان على الحديث بتفاصيل عن الأبناء والتعليم. أشعر بالزهو وأنا أنظر إليهن وأرى نفسي جزءًا من السرب. لا أحد يأتي على ذكر الثورة والأحداث التي تلتها من قريب أو من بعيد. لا بأس. أتوقع أن تكون لهن آراء سياسية تخصهن، لكن أحدًا لا يغامر بفتح الكلام. لا عن الثورة المصرية ولا عن السورية. يظلل الخوف أحيانًا على أحاديثنا حتى في خارج البلاد. وربما لا يكون خوفًا صريحًا، بل فقدان مؤقت للأمل في الثورات.

أفتح النافذة فيدخل هواء بارد منعش من فتحة صغيرة. تعترض عاليا على الفور معلقة على برودة الجو هنا مقارنة بآن أربر. أغلق النافذة ويعاودني مشهد قنديل البحر في بحيرة ميتشجن. تلك الأفكار تأتي ولا ترحل. تطل من فتحة في الذاكرة أو تتسرب من صفحة في دفتر قديم. أجرب صياغتها ذهنيًّا بعبارات مختلفة، متخيلًا جمهورًا عريضًا غائم الملامح، منتشرًا على هيئة تكتلات صغيرة في فراغ ضخم. قد يكون ميدانًا فسيحًا في مدينة شبحية أو حفرة هائلة فوق القمر أو تكتلًا من طحالب لزجة في عمق البحيرة. لوهلة، يبرز وجه من بين الوجوه التي تغلفها العتمة، يطرح سؤالًا ويختفي. تبتسم شفاه لا أعرف صاحبتها، أو يزعق فم كبير بلا أنف وبلا عينين.

أهتف في الجمهور الذي يراني ولا أراه صائحًا بجمل خطابية لا تصلح لهذا الزمان؛ لذلك يتعين علينا أن نقاوم محاولات الهدم التي باتت حقيقة واقعة بأسلوب علمي وبعزم لا يلين، لعلنا ننبذ الكراهية والحقد والعنف المنظم، لعلنا نتكاتف من أجل بناء إنسان

جديد يؤمن بالعدل والحرية والكرامة. قلبي يقول في غفلة من عقلي: لذلك يتعين علينا أن نحيا متلاصقين؛ أنا وأنتِ يا حبيبتي، إذ ما الحياة بدونك إلا سلسلة لا متناهية من الفراغات المعتمة، من الخوف والرهبة والتوهان.

أخجل من اختزال العالم في شخص. أخجل من الاستبطان، والبوح، والاعتراف بالأفكار الذاتية في ظل كل هذا الخراب الكوني. صوت بداخلي يقول إن الأفكار أو بعضها لن ينتظم طالما أنا في حيرة من قلبي، في غفلة عن مصدر طاقتي، بعيدًا عن الحياة، منسحقًا في عاديتها. أدرك صعوبة ترتيب الأفكار وأسعى للكتابة عنها وبها. سأفتش عن تلك الدفاتر القديمة التي نصحتني بكتابتها خاطرة. كانت محاولة آنذاك لبعثرة زمني وزمن غيري على الورق. الآن يتعين عليَّ لملمتها. أعرف أن تنظيم الأفكار والمشاعر في طابور له بداية ونهاية مسألة شبه مستحيلة. لكن يكفيني شرف المحاولة.

جسدي رخو كقنديل بحر، لكنه متيقظ، يشحن الطاقة ويعيد تركيزها على هيئة أشرطة مصورة. بفضلها يمكنني أن أواجه العالم وأواجه داينا لو لزم الأمر كما واجهت تلك البحيرة، وحيدًا، أعزل، إلا من تاريخي الشخصي وخيالاتي المرتبكة وحكاياتي التي لا رأس لها ولا ذيل.

يُحكى أني حاولت تغيير العالم وفشلت. طبعًا فشلت. كنت في العشرين أو بعدها بقليل، أقرأ كثيرًا، أنتظم في حضور اجتماعات التكتلات اليسارية، أندرج في صفوف المدافعين عن الحق الفلسطيني، ولكني في قرارة نفسي أرتعب من احتمالات العنف والموت المحدق. ويُحكى أن العالم يتغير بحركات بسيطة أشبه

بحركات قنديل البحر. فقط يجب على المرء أن يكون صبورًا وأن يتحرك ببطء وثبات. صوت ما بداخلي يقول الجملة الأخيرة ويختفي. يطفو محله صوت آخر، متهكم، عابث، مخزٍ. ثم أصوات وأصوات ترن في الفضاء، ثم تبتعد وتتضاءل كقناديل البحر. أحيانًا تومض مثل عبارات محفورة من نور في عمق العتمة. وأحيانًا أخرى تفتح أمامي دوامة من الاحتمالات. ماذا لو تبعت صوتًا منها وأمسكت بذيله؟ ماذا لو تركت نفسي للدوامة؟ وماذا يحدث لو لم أغرق في بحر الحكايات؟ لو بقيت فيها كما أنا الآن، في حال من اليقظة ومن الطفو الدائم؟

يزعق الفم الكبير: مالك أنت ومال العالم؟ لقد قبلتَ الهجرة والوظيفة والأسرة والاستقرار الاجتماعي؛ لأنك تعجز عن تغيير العالم. ألا تعترف بأخطائك وتتحمل تبعة اختياراتك العاقلة؟

يبدو منطق هذا الفم بديهيًّا بسذاجة أو ساذجًا بشكل بديهي. كيف غاب عني تناقض الأمنيات الرومانسية مع كلمات مثل وظيفة، أسرة، نجاح؟ أتأمل كل كلمة وأراها تتخذ مسارًا استثنائيًّا، تخرج عن السرب أو الكتلة التي ينبغي أن تندرج فيها. أعجز عن تحقيق النجاح في الوظيفة فألجأ للحياة المشتركة، أعجز عن تغيير العالم فألجأ للوظيفة، أعجز عن الحب فألجأ لوهم تغيير العالم.

من موقعي كخطيب يساري بدكان حلاق الشام صباح كل يوم سبت، أو من مرقدي بين الصحو والنعاس على شاطئ بحيرة ميتشجن، تضخ طاقة التذكر حياة في عروقي اليابسة. لابد أني مت في عام ثمانية وثمانين. أو أني أحيا في جسد آخر منحتني إياه وزارة الهجرة مع بطاقة اللجوء.

لا إجابة عن سؤال الفم الكبير. أفكر وأنا أطفو في عالمي المهدد بالفناء أني قد أموت غدًا برئة تعجز عن التنفس. شهيق بلا طاقة، زفير بلا طاقة. يتفوق عليَّ في لعبة الحياة قنديل بحر تافه في بحيرة ساكنة.

أفكر وأنا أسبح في ملكوت الذكريات اللا نهائي أن بإمكاني أن أمسك بذيل الحكاية، وأن أتتبعها. للحكاية طاقة تخصها. قد لا أكون ضليعًا بفنون الحكي، لكني ألمح، أتحسس. بوسعي أن أكتب بلا جسد لحكاية وبلا هدف. أفكاري مثل قنديل بحر فارغ، رخو، متوحد بذاته وبماء البحيرة. أحكي حتى في صمتي وفي ثباتي. أحكي وأنا فارغ وأنا ممتلئ. أحكي بتوحدي مع الكائنات وبانفصالي عنها. بوجودي في حضن امرأة وبغيابي في غيهب الذكريات. أحكي ولا أكف عن أحلام اليقظة. نقترب من موقف الباص فأتنهد مرتاحًا وأبتسم. تلمح داينا ابتسامتي ولا تعلق. أقول في نفسي: ولما كانت الليلة المائة بعد الألف، لم يأتِ النوم وأتت محله آلاف السمكات.

***

تتوقف السيارة أمام باب الدخول. نهبط جميعًا ونتحلق حولها. أسارع بمساعدة عاليا في حمل أغراضها قبل أن تتركنا داينا لتبحث عن مكان لصف السيارة. الطابور أمام بوابة الباص المتجه لتورونتو طويل ومتعرج. بعض الناس يضع كمامة طبية والبعض الآخر لا يضعها، والكل يهمهم عن الأحوال المتقلبة وأنباء الموت القادمة من أوروبا، وشدة الزحام بسبب إغلاق خط القطار لأجل غير

معلوم. نحجز مكانًا في الطابور بحقيبة عاليا الكبيرة، ونقف بالقرب منها نتلهى بالفرجة على الرائح والغادي وقد كففنا عن كل حديث.

كان الدكتور زميل لينا الذي التقيناه في المطعم قد وصل قبلنا ووقف متقدمًا عنا في الطابور. لم يعد بصحبة صديقته. حقيبته الكبيرة تنم عن اعتزامه القيام برحلة طويلة. تقترب لينا وسوسن منه، تتحدثان معه وتتضاحكان. بعد حين تعود لينا صوبنا لتعلن أن الجامعة ستغلق أبوابها حتى نهاية فصل الربيع والصيف، وأنها تشجع الأساتذة على التدريس أونلاين. تقول إن زوجته نورهان مقيمة في تورونتو. تقول أيضًا إن لديه ولديْن، وإنه يخشى أن يعطلاه عن العمل لو أغلقت المدارس. نورهان! تهتف داينا. يا الله! ده زوج رفيقتي يلي كانت معي ع الطيارة، اسمه كريم، لا تؤمن لينا على الاسم قائلة: إيه، كريم ثابت. تصيح عاليا ضاحكة: عندهم حق يقولوا إن كل العرب بيعرفوا بعض! يتسلل نظر سلمى للدكتور كريم وتبتسم. أسألها إن كانت تعرفه. ترد بالنفي وتتسع ابتسامتها وهي تهز رأسها يمنة ويسرة.

بعد قليل ينضم لكريم رجل آخر يبدو أكبر سنًّا، يجر حقيبة سفر كبيرة وترزح كتفاه تحت ثقل حقيبة جلدية أخرى يحملها على ظهره. يتبادلان كلمات قليلة وهما يشيران للحقائب. كأن الجميع في حالة هجرة جماعية، الكل متجه لتورونتو في هذا الطابور، البعض سيهبط في مطار لستر بيرسون، والبعض سيظل بالباص حتى المحطة الأخيرة. تبدو على عاليا أمارات التوتر من الزحام وتهدئ سلمى من روعها. تسأل أحد رجال الأمن الذين يتجولون بين الحقائب والناس عن موعد الباص وعواقب الزحام، فيطمئنها

أن الباص سيأتي في موعده، وربما أضيف إليه باص آخر لو استمر عدد الركاب في التزايد.

تحين من لينا التفاتة باتجاه أول الطابور. تتجول بنظرها بين ظهور الناس ووجوههم، ثم يتوقف نظرها في منتصف الطابور حيث يقف كريم وزميله وتفتح فمها قليلًا وقد اتسعت حدقتا عينيها. تهم على أطراف أصابعها وتهبط من جديد كمن يحاول الاختباء بين الناس وهي تدير ظهرها لنا. ثم تسحب داينا من يدها وتبتعدان قليلًا. تتهامسان، ولينا تلتفت لتنظر صوب الدكتور كريم ورفيقه. تربت داينا على كتف صاحبتها. تقتربان من المجموعة وبعد برهة تحتضن لينا عاليا وتخبرها بأنها بحاجة للذهاب للسيارة فقد أعياها الوقوف. تتمنى لها رحلة سعيدة وتقبلها بحنان. تحملها السلام لماتيو وكأنه أحد أقاربها، وتوصيها بالكتابة حالما تصل إلى ديروتا. تخترق لينا الجموع باتجاه باب الخروج، ثم تلتفت للوراء لتحيينا من جديد بلفتة صغيرة من يدها وتخرج. تلتفت داينا مرة أخرى باتجاه كريم ورفيقه. أنظر إليهما بدوري وأراهما وقد انغمسا في حديث طويل ولا يلتفتان لوجودنا أصلًا. أتساءل بعيني وأنا أتفحص وجه داينا، فتجيبني باقتضاب: هاي دكتور كمال؛ صديق لينا من سنين، بتعرف.

أعرف. حكت لينا لداينا عن حكاية غرامها العارمة بكمال في فترة إقامتها وعملها بجامعة وندسور. ونقلتها لي داينا وكأنها قصة من قصص ألف ليلة وليلة. انتهزت داينا الفرصة آنذاك وألقت اللوم على غالب زوج لينا. حاولت أن تبرئ صديقتها من الوقوع في حب رجل غير زوجها ومن فعل الخيانة، ولم أكن أبالي كثيرًا بتفسيرات داينا

أو لينا. للرجال مبررات أخرى غير تلك التي تسعى النساء لغزلها وحياكتها، ولم أكن يومًا من بين هؤلاء الذين يعتذرون عما فعلوا.

نسيت الحكاية، والآن تذكرت بعض تفاصيلها. الدكتور كمال المصري. ربما تجاوز الستين مثلي. ربما كنا شبيهين دون أن ندري. غريبة تلك الأقدار التي تجمعني بكريم زوج نورهان وكمال حبيب لينا في طابور واحد. سرب من أسراب قنديل البحر. جميعنا ينتظر أو يتحرك ببطء. وماذا ننتظر غير الباص؟ سيستقلانه باتجاه تورونتو وسنعود نحن باتجاه ديربورن، ولكل منا بيت وأبناء وحكاية يقصها لنفسه أو لآخرين كلما تسنى. لن يعرفا شيئًا عن عاليا ولا عن لقاء داينا وعاليا بنورهان. حبيبتي الصغيرة نور! وماذا كان سيحدث لو أن الدكتور كمال التفت إلى الوراء في اللحظة نفسها التي همت فيها لينا على أطراف أصابعها والتقت العيون؟ هل كان سيحاول التحدث معها، أم كان يدعها وشأنها كأنه لا يراها؟ سأكتب عن هذا اللقاء في دفتري. عن صدمة لحظات الوداع المتجددة، تلك التي نعيشها دون أن ندري أننا نفارق من نحب بشكل مكرر، كمن يحيا سلسلة من موت مجزأ لا سبيل للتراجع عن خوضها.

يوقظني من أحلام يقظتي صوت كسول ينطلق من الميكروفون داعيًا المسافرين المتجهين إلى تورونتو للاستعداد لركوب الباص وإبراز تذكرة السفر للمحصل. تحتضن سلمى صديقتها وعيناها تبتلان بالدموع. تقول بلكنة عربية أمريكية: سلامي لجدو في «تانطا» ولمامي وماتيو. ولمصر يا عاليا. مصر وحشتني! تحتضن داينا عاليا وتوصيها بالانتباه لفروق التوقيت في الترانزيت، وتقول إنها سترسل لها ألبوم صور فائقة الجودة في القريب العاجل.

أكتفي أنا بقبلة على خد عاليا، وأبتسم لها فتبتسم لي ابتسامة واسعة وهي تقول: لازم تيجي مصر.

نبتعد ثلاثتنا عن الطابور، ونرى الناس وقد انتظموا في صف طويل يخرجون التذاكر من جيوبهم وحقائبهم وهم يخبرون السائق ومساعده عن وجهتهم النهائية. بعض الحقائب تدخل في بطن الباص إلى اليمين لمن يهبطون في المطار، والبعض الآخر في فتحة كبيرة إلى اليسار توضع فيها حقائب من ينتظرون للمحطة الأخيرة. تلوح عاليا لنا بعد أن تتجاوز البوابة ثم تختفي في جوف الباص. تلوح داينا بيدها فتهتز سلسلة المفاتيح وترن الشخاليل ويضيع صوتها وسط الجلبة وهي تقول: «باي يا حلوة». وقبل أن ننتبه، تكون قد أدارت ظهرها لنا وسبقتنا نحو باب الخروج. تريد أن تطمئن على لينا قبل أن نستقل جميعًا السيارة.

في طريق العودة يلزم الركب الصمت. ما زال ضجيج موقف الباص وزحام المحطة الذي لم نشهد مثيلًا له منذ زمن يطنان في آذاننا. من حين لآخر، تنظر داينا في المرآة الأمامية فيظهر لها وجه لينا وقد علته أمارات الشرود. تلوذ سلمى بالصمت، وتغيب عن السيارة أغنيات عاليا الصاخبة. أطلق يدي في لحيتي، أتحسسها في كل الاتجاهات وأذكر نفسي بضرورة حلاقتها قبل موعدي مع سلمى في عطلة نهاية الأسبوع.